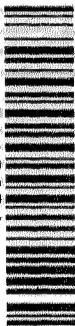


نوال السعداوي



Bibliotheca Alexandrina



0112684

الأغنية الحديثة



دار الآداب

الأغنية الدائرية

تصميم الغلاف
مهى نصر الله

د. نوال السعداوي

الأغنية الدائرية

رواية

دار الآداب

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثالثة

١٩٩٩

الهدايا

الى طفلي المجهول ، الذي ولدته وحدي منذ قرون ،
وتركته بالليل في حضن الجسر، وفي الصباح وجدت
مكانه شجرة خضراء باسقة ، جذرها في الارض ، ورأسها
في السماء ، شامخة كالالهة الانثى القديمة ، ربة الحياة
والموت •

اليه والى كل الشجرات الباسقات في العالم ، والى
كل أطفال الآلهة اهدي هذه القصة •

نوال السعداوي

كانت دائرة من اجساد الاطفال الصغيرة تلف وتدور
حول نفسها امام عيني ، كل يوم ، وفي اي وقت انزل
فيه من بيتي ، وصورة غنائهم الحاد الرفيع يدور مع
حركة اجسادهم في اغنية واحدة ، لها مقطع واحد ،
يتكرر في دورة متصلة لا تنقطع :

حميدة ولدت ولد
سمته عبدالصمد
سأبته ع الانايا (١)
خطفت راسه الحدايا (٢)
حد يا حد ...
يا بوز القرد !
حميدة ولدت ولد

(١) الانايا : الفتاة

(٢) الحدايا : الحباة

سمته عبدالصمد
سابته ع الانايا
خطفت راسه الحدايا
حديا حد ***
بابوز القرد
حميده ولدت ولد
سمته عبدالصمد

ويكررون الاغنية • ما ان يصلوا الى الجملة الاخيرة
حتى تأتي الجملة الاولى ، وما أن تنتهي الجملة الاولى
حتى تأتي الاخيرة • ولأنهم يدورون ويغنون بغير انقطاع ،
فلا يمكن للاذن ان تعرف بداية الاغنية من نهايتها، ولا يمكن
للعين ان تعرف بداية حركتهم من نهايتها • فهم كعادة
الاطفال يمسكون بأيديهم بعضهم البعض على شكل
دائرة مغلقة •

ولكن لا بد لي ان أبدأ القصة ، فكل شيء له بداية ،
لكن نقطة البداية في هذه القصة لا يستطيع
تحديدها • فالبداية لا تبدأ بنقطة محددة ، لان البداية
في حقيقة الامر غير موجودة او ان البداية والنهاية يتصلان

في خيط واحد دائري من الصعب تحديد اوله من
آخره .

ومن هنا صعوبة البدء بشيء ، وعلى الاخص اذا كان
قصة حقيقية . اي قصة صادقة كل الصدق ، دقيقة
غاية الدقة . والدقة الدقيقة تقتضي من الكاتب او
الكاتبة ان يراعي والا يهمل اي نقطة . ان نقطة واحدة
قد تقلب كيان معنى من المعاني ، وبالذات في اللغة
العربية . الذكر يصبح انثى بسبب نقطة او شرطة ،
والبعل بغلا ، والوعد وغدا وهكذا .

ومن هنا لا بد ان توجد نقطة محددة ابدا بها .
والنقطة المحددة هي النقطة المحددة ، لا يسكن ان تكون
شرطة او دائرة ، وانما لا بد ان تكون نقطة حقيقية ،
اي نقطة هندسية . وبمعنى آخر لا بد من دقة علمية في
العمل الفني الجيد الذي هو هذه القصة . لكن العالم
يفسد الفن ، وهذا الافساد هو بالضبط ما اریده في هذه
القصة لتصبح جيدة ، أو لتصبح حقيقية وصادقة صدق
الحياة الحية . وانني لأصر على هذا التعبير « الحياة
الحية » اكتبه بسبق اصرار وليس من قبيل الصدفة . لان
هناك حياتين : حياة حية وحياة ميتة . والحياة الميتة

كالانسان الذي يمشي على الارض دون ان يعرق ، او دون ان يبول ، او دون ان ينبعث من جسده شيء فاسد .
 الفساد والافساد والتفسد كلها اشياء ضرورية للحياة الحية ، وللانسان الحي . لا يمكن للانسان الحي ان يجلس بوله في مثانته الى الابد ، والا مات . حينئذ يستطيع ان يجلس فساده في الداخل ويصبح من الخارج جسدا ميتا نظيفا من الناحية العلمية . اما من الناحية الفنية فان الفساد المحتبس بالداخل اشد تفسدا من الفساد المنطلق الى الخارج . وهذه حقيقة او ظاهرة طبيعية لا تخفى على أحد ، فان رائحة الجسد الميت اشد سوءا من رائحة الجسد الحي .

خيّل اليّ (والخيال في تلك اللحظة كان حقيقة)
 ان طفلا من الاطفال المنشدين المتماسكين بالايدي على شكل دائرة تدور خرج فجأة من الدائرة . رأيت جسمه الصغير ينفصل عن الخط الدائري المنتظم في دورانه كنقطة لامعة محددة . كنجم فقد توازنه الابدني فانفصل عن الكون اللانهائي ، واندفع بهركة عشوائية سريعة متوهجا بشعلة كالشهب قبل ان يحترق .

وباستطلاع غريزي تابعت عيني حركته . وحين توقف

كان قد اصبح بالقرب مني • ورأيت وجهه • لم يكن
 طفلا ذكرا • كان انثى • لم اعرف عن يقين انها انثى ،
 فوجوه الاطفال كوجوه العجائز لا جنس لها • وبين
 الطفولة والشيخوخة مرحلة يضطر فيها الانسان الى
 الاعلان عن جنسه بوضوح اكثر •

الوجه (للغرابة الشديدة) لم يكن غريبا عليّ • كان
 مألوفًا بدرجة اثارته دهشتي الى حدّ عدم التصديق •
 فليس من المعقول ان يخرج الانسان من بيته في الصباح
 ذاهبا الى عمله ، فاذا به يصطدم بشخص آخر ، ما ان
 يرفع وجهه اليه حتى يرى وجهه هو ، وليس ايّ وجه
 آخر •

اعترف ان جسدي ارتجّ ، نوع شديد من الذعر
 يشلّ قدرة الانسان على التفكير • ومع ذلك فكرت :
 يذعر الانسان حينما يرى وجهه وجهها لوجهه ؟ لعلّها
 الغرابة الشديدة ، او لعلها الالفة الشديدة • حينئذ يختلط
 على الانسان كل شيء ، وتصبح الاشياء المتناقضة متشابهة
 الى حد التماثل ، فالاسود يصبح ابيض ، والابيض اسود •
 ومني ذلك ان يواجه الانسان بعينه المفتوحتين حقيقة
 انه أعمى •

فركت عيني بأصابع مرتجفة • ونظرت في وجهه
مرة ثانية ، وثالثة ، ورابعة وخامسة وربما لا زلت انظر
في وجهه حتى هذه اللحظة ، وفي كل لحظة ، كأنه يلزمي
كظلي ، او يلتصق بي كقطعة من جسدي ، كذراعي
او ساقي •

والذعر بطبيعته يولد الكراهية • لا أنكر انني
كرهت هذا الوجه • وقد يظن بعض الناس انني لست
صادقة فيما أقول ، ويتساءلون كيف يمكن لاسنان ما أن
يكره وجهه ، او جسده ، او قطعة من هذا الجسد •
وهؤلاء الناس هم ولا شك على حق • انهم اقدر مني على
رؤيني • ليست هي محنتي وحدي ولكنها محنة كل
انسان • فالآخرون يرونه أكثر مما يرى نفسه • يرونه من
الامام ، ومن الجانب ، ومن الخلف • يرونه من ظهره •
اما هو فلا يرى نفسه الا من الوجه ومن خلال مرآة •

المرآة تظل هناك دائما ، قائمة كالشخص الاخر بين
الانسان ونفسه • ومع ذلك فأنا لا اكره المرآة ، بل اكاد
احبها حبا شديدا • احب النظر فيها طويلا ، والحملة •
احب ان ارى وجهي • الحقيقة اني لا امل النظر السي
وجهي • فهو وجه جميل ، اجمل من اي وجه آخر رأيته

على ظهر الارض • وفي كل مرة انظر اليه ارى جبالا
جديدا يكاد يسحربي •

قد لا يستغرب بعض الناس هذا الصدق الشديد ،
فالصدق الشديد يصبح مقززا في بعض الاحيان ، او في
كل الاحيان • ولكنني عاهدت نفسي على ان اقول
الصدق • أنا ادرك ان الاستمرار في الصدق مجهد ،
يتطلب دائما مزيدا من الجهد والتضحيات • كأن يضحي
الانسان بأن يكون جميلا او مقبولا في كل لحظة ، وان
يتحمل احيانا درجة من القبح ، في نظر الناس ، انترف انه
قد يكون قبحا شديدا يصل الى حد التقرز • ولكن هذا هو
الكفاح المطلوب في العمل الفدائي وفي العمل الفني
الجيد ، الذي اكتبه الآن •

بهربي في الوجه بالذات العينان ، فأنا اعشق العيون •
واعتقد (وقد يكون اعتقادي بغير علمية معترف بها)
ان عيني الانسان جهاز حساس ، بل انه اكثر اجهزته
حساسية ، يليه الجهاز التناسلي بطبيعة الحال • شدتني
الى العينين نظرة لها لمعة متحركة في كل الاتجاهات
والزوايا كاشعاعات فصّ الماس الحقيقي • وهي نظرة
محيّرة فعلا • لانها ليست نظرة واحدة ، يستطيع

الانسان ان يحدد معناها ، نظرة حزن مثلاً ، او نظرة
فرح ، او نظرة عتاب ، او نظرة خوف ، ليست هي نظرة
واحدة ، وانما هي نظرة متعددة النظرات ، وان بدت من
السطح وحيدة النظرة ، الا انه سرعان ما تنطوي النظرة
الاولى وتتلوها الثانية والثالثة كصفحات كتاب و كطيات
نسيج رقيق وضعت طبقاته الطبقة فوق الطبقة ***

انشغلت بالعينين عن بقية ملامح الوجه • لم أر الاثف
ولم ار الخدين ولا الشفتين ولا اليد الصغيرة التي ارتفعت
في الهواء ولوحت لي بحركة ناعمة مألوفة كأنها تعرفني •
سألتهما : ما اسمك ؟

قالت : حميدة

وارتفع صوت الاطفال بحركتهم واغنيتهم الدائرية بغير
بداية او نهاية •

حميده ولدت ولد
سمته عبد الصمد
سأبته ع القنايا
خطفت راسه الحدايا
حد يا حد

يا بوز القرد
حميدة ولدت ولد

ضحكت كعادة الكبار حين يداعبون الصغار وقلت:
- يغتفون لك ؟ ..

لكنها لم تردّ . لأنها كانت قد اختفت من امامي
في اللحظة التي اهتز فيها رأسي اثناء ضحكي . استطعت
فقط ان المح ظهرها الصغير المحني بعض الشيء وهو
يختفي داخل باب خشبي داكن اللون علقت فوقه يد آدمية
خشبية كمطرقة .

لم امسك المطرقة كعادة الغرباء حين يدقون الابواب
المغلقة . كنت اعرف طريقي ، رغم الظلمة الشديدة التي
تقع دائما في مداخل تلك البيوت ، ولان الشمس ايضا
كانت قد غربت منذ زمن طويل . عن يميني رأيت رأس
الماعزة يطل من خلف الجدار ، وعن يساري كانت هناك
عتبة صغيرة مرتفعة بعض الشيء . تعثرت في العتبة ككل
مرة ، وكدت اسقط على وجهي لولا خفة جسمي المعهودة
وقدرته العجيبة على الاحتفاظ بتوازنه المختلّ .

ورأيتها نائمة فوق الحصيرة ، مستغرقة في النوم .

جفناها نصف مغلقتين ، وشفناها نصف مفتوحتين ،
تنفس من فمها انفاً عميقة كأنفاس الاطفال العميقة ،
وذراعاها متكورتان حول رأسها ، ويدها اليمنى
مطبقة على قرش او تعريفة ، وجلباها الطويل انحسر عن
ساقها الناعمتين الرقيعتين حتى الركبتين ، ورأسها
الصغير يهتز بحركة ضييلة غير مرئية ، وفكاها الصغيران
يضغط احدهما على الآخر ضغطة هيّنة توحى بلذّة
تذوّب في فمها من قطعة الحلوى مختبئة تحت لسانها •

كان الليل مظلماً بغير قمر ، والمصباح المشتعل منذ
اول الليل احترق شريطه ، او نفذ زيتّه ، فاصبح ذؤابة
ضييلة ، اطفأتها نفحة هواء قوية ، وساخنة ، اندفعت
فجأة من ناحية الباب ، الذي لم يكن باباً ، فالغرفة لسم
يكن لها الا عتبة صغيرة مرتفعة بعض الشيء ، لكن
ذؤابة الضوء كانت قد انطفت فاصبحت الظلمة شديدة
الارض كالجدار كالسقف • لا شيء يظهر في السواد
الداكن الا سدّ كبير يسدّ فتحة الباب تماماً فيما عدا
تقنين صغيرين مستديرين يتوسطان الرأس ، وينفذ منهما
ضوء أصفر تشوبه حمرة بلون جذوة النار حين تنقد •

لم يكن الشفق قد طلع بعد في تلك اللحظة

الساقطة ما يبين آخر خيوط الليل واول خيوط النهار ،
فنعثرت قدمه الكبيرة الحافية في العتبة المرتفعة بعض
الشيء . لكنه استعاد توازن جسده الطويل العريض ،
ووثب كالفهد على اطراف اصابعه المطاطية ، ثم سار على
مهمل وحذر متخطيا شيئا يشبه البلغة (١)

وبالثقبيين اللذين ينفذ منهما الضوء المشوب بالحمرة
حدد مكانها فوق الحصيرة ، كعيني قط وحشي لم
تستأنس حدتها وقدرة حدقتيها على الاتساع في
الظلام . وحينما امتدت اصابعه الغليظة المفلطحة لترفع
جلابها عن فخذيها اليبضاوين كانت لا تزال مستغرقة
في النوم استغراق الاطفال ، وقد تغير الحلم ، وذابت
قطعة الحلوى تحت لسانها ، وبدأ البائع يطالبها بالقرش ،
وفتحت يدها فلم تجد قرشا ، وامسك البائع الفظ
العصا وراح يجري خلفها .

كان جسدها خفيفا صغيرا يطير في الهواء كاجساد
العصافير ، وكان من الممكن ان تسبق البائع (لو كانت
عصفورا) لكنها احست فجأة وكما يحدث في الاحلام

(١) الحذاء بلغة الريف .

تماما ان جسدها اصبح ثقيلًا كأنه تحجّر على شكل تمثال
تسمّرت قدماء في الارض ، وثبتت ذراعاه بالحديد
والاسمنت ، والفخذان اصبحتا من الرخام ، وكل فخذ
شدّت الى ناحية ، وتصلبت الساقان في الجو منفرجتين
كالمصلوب ، وضربات العصا تنهال بينهما بعنف لسم
تعرفه من قبل •

صرخت • لكن صوتها لم يطلع • يد كبيرة مفلطحة
سدت فمها وانفها فاختنقت ، وادركت انها لا تحلم ، وان
جسدا كبيرا له رائحة التبغ ملاصق لجسدها • كانت
عيناهما مغمضتين ، لكنها استطاعت ان ترى ملامح الوجه ،
وتدرك انها تشبه ملامح ابيها ، او اخيها ، او عمها ،
او خالها ، او ابن خالها ، او اي رجل آخر •

وكانت حميدة تستيقظ كل صباح ككل الاطفال ناسية
احلامها ، وتقفز من فوق الحصيرة كالعصفور ، تجري
الى امها ، وتشدو بصرخات الاطفال السعيدة حين يستقبلون
اليوم الجديد بجسم نام حتى شبع ، ومعدة خوت حتى
تفتحت شهيتها لكل شيء ، وان كان قطعة خبز مقدد
تكسر الاسنان اللبنية ، او شفطة لبن من ضرع ، او قطعة
مش من قاع الزلعة •

ذلك الصباح استيقظت حميدة ككل صباح، لكن الحلم لم يَتنس كالاحلام السابقة ، واصابع غليظة تركت آثارا حمراء وزرقاء على ذراعيها وساقيهما ، وضربات العصا لا تزال تؤلمها بين فخذيهما ، ورائحة التبغ لا تزال عالقة بجملدهما .

ظنت امها انها مريضة بالحمى ، فربطت رأسها بسنديل وتركتها راقدة فوق الحصيرة طول اليوم ، ونامت حميدة النهار والليل ، واستيقظت في اليوم التالي ، وظنت انها نسيت الحلم ، وانه ضاع في الزمن وتبخر في الهواء ، كأنما لم يكن ، فقفزت من فوق الحصيرة قفزتها المعتادة ، فيما عدا ثقل خفيف في ساقها سرعان ما راح حين ارتدت المريلة وجرت مع الاطفال الى المدرسة .

كنت استطيع دائما ان اميز حميدة من بين الاطفال ، فالمريلة من الدمور ، ولونها سمني فاتح ، عليها بقعة من الخلف كانت حمراء من ايام ، حين تسربت نقطة دم من سروالها الصغير الى المريلة وهي جالسة في الفصل . امها كانت تنبهها دائما لتختاط للامر ، وان تضع الفوطاة الدمور بعناية بين فخذيهما ، فهي لم تعد طفلة صغيرة ، وكثيرا ما سمعت امها تقول : « في

مثل سنك تزوجت ولم يكن ثدياي قد ظهرا بعد » •

خجل كالعرق كان يندي جبهتها المستقيمة الصغيرة حين تستدير وترى البقعة فوق المريلة ، فتجري على اطراف اصابعها وتخلع المريلة وترتدي الجلباب الطويل ، وتجلس الى الطشت ، وتغسل مريلتها الوحيدة ، ثم تنشرها على الحبل في الشمس لتجف قبل اليوم التالي •

و ذات يوم اصبحت المريلة ضيقة ، بصعوبة ادخلت فيها جسمها ، وبالذات من الامام ، عند بطنها • واستقرت عينا امها على بطنها بنظرة غريبة لم ترها من قبل ، ومخيفة الى حد ان رعدة خفيفة سرت في جسدها الصغير • والتفت اصابع امها الكبيرة حول ذراعها النحيل وصاحت :

— اخلي المريلة •

خلعتها وارتدت الجلباب ، وجلست في الشمس بجوار الحائط • كانت امها تناديهما لتساعدها في العجين او الخبز او الطبخ او كنس الدار ، او كان ابوها او خالها او عمها يرسلها الى الدكان لتشتري دخانا ، او كانت خالتها او عمتها تناولها طفلها الرضيع لتحمله عنها

حتى تعود من الحقل ، او جارتها كانت تناديهما من فوق
السطح لتملأ لها الجرة من البحر ، او اخوها او خالها
كان يلقي اليها بجوربه وسرواله القذرين لتغسلهما •
وعند الغروب يلتف حولها البنات والصبيان من اولاد
الجيران فينزلون الى الشارع ويلعبون « المساكة » ، او
« عسكر وحرامية » ، او « الثعلب فات فات » او « حبة
ملح » ، او « حميدة ولدت ولد » •

أي شيء من ذلك لم يحدث في ذلك اليوم •
وتركوها وحدها جالسة في الشمس ، ولم تجد بدا من
التحديق في قرص الشمس طويلا • وحينما غابت
الشمس ظلت جالسة مكانها في الظلام ، جسدها الصغير
يرتعد • شيء ما تحسه ولا تعرفه ، شيء ما رهيب
يحدث من حولها ، في الظلام ، وفي الصمت ، وفي العيون ،
كل العيون ، حتى الدجاج الذي كان يلتف حولها ،
لم يقترب منها ، والقط الاسود الكبير الذي كان
يتمسح بها اصبح واقفا بعيدا عنها ، يرمقها بنظرة وجلة
من عينية الواسعتين ، وباتتصابة من أذنيه الطويلتين
المدببتين •

سقط رأسها فوق ركبتيها وهي جالسة • وربما غفت

لحظة او عدة ساعات ، افاقت بعدها على اصابع طويلة
تمسك ذراعها • انتفضت مذعورة ، وكادت تصرخ ، لولا
ان يد امها اصبحت فوق فمها ، وصوتها الخافت
اصبح كالضحك :

— تعالي ورائي على اطراف اصابعك •

الليل مظلم بغير القمر ، والشفق لم يطلع بعد ،
وكل شيء في القرية ساكن نائم في تلك اللحظة الساقطة ما
بين آخر الليل واول النهار قبل آذان الفجر ، وقدا امها
الحافيتان الكبيرتان تنتقلان فوق الارض المتربة بسرعة
كبيرة، توشك ان تجري ، وحميدة خلفها ، تكاد تلمس
طرف ثوبها •

أرادت ان تفتح فمها وتسأل امها عن السبب ، لكن
امها توقفت عند سور صغير يفصل الطريق الزراعي عن
قضبان القطار • وراء هذا السور كانت تختفي حميدة حين
يلعبون المساكة • ناولتها امها طرحة سوداء •

وضعت حميدة الطرحة على رأسها فانسدلت فوق
عنقها وكتفيها وصدرها وبطنها وظهرها واصبحت
تشبه نساء القرية • فتحت فمها لتسأل ، لكن صفارة
القطار جعلت جسد امها يرتعد ، رعدة عنيفة هزّت

الارض من تحتها ، وبعنف ايضا اندفعت قبضتها
الكبيرة في ظهر حميدة ، وقذفت بها ناحية القطار ،
وصوتها الهامس المنخفض كالفحيح :

— القطار لا ينتظر أحدا • اهربي !•

اندفعت حميدة نحو القطار ، لكنها استدارت لحظة
قبل ان تركب ، ورأت امها واقفة في مكانها ، متمسرة
في الارض ، ثابتة لا تتحرك ، والطرحة السوداء فوق
رأسها وكتفيها وصدرها ثابتة ايضا ، فلم يكن
صدرها في تلك اللحظة يتحرك ، ولا شيء فيها
يتحرك ، ورموشها ثابتة متجمدة ، كتمثال حفقي منحوت
من الحجر •

كان القطار يدخل المحطة ، برأسه الاسود الضخم
ينبعث منه الدخان ، وبعينه الوحيدة الكبيرة المضيئة بنور
قوي كشف المحطة ، وكشف حميدة وهي واقفة ، فاخترأت
وراء عمود • وقف القطار بعد ان اصطدمت عرباته بعضها
بالبعض ، واصططكت عجلاته الحديدية بالقضبان الحديدية
محدثه صوتا عاليا فاضحا ، خيل اليها انه ايقظ كل
اهل القرية ، فاندفعت نحو القطار تخفي وجهها بذيل
طرحتها •

مدّت قدمها اليمنى الصغيرة لتضعها فوق سلم
القطار ، لكن السلم كان بعيدا عن الرصيف ، ولم تكن
قد ركبت قطارا من قبل ، فلم تصل قدمها الى السلم •

عادت بقدمها الى الرصيف • وتلفتت حولها في
ذعر • خشيت ان يتحرك القطار ولا تركب • رأت بعض
الرجال والنسوة يركبون العربّة الامامية فاسرعت ووقفت
خلفهم • راقبتهم وهم يصعدون السلم واحدا وراء
الآخر • كل واحد منهم كان ، قبل ان يضع قدمه على
السلم، يمسك بيده اليمنى مقبضا حديديا على جانب
الباب لم تره من قبل • مدّت حميدة ذراعها وامسكت
المقبض بكل قوتها ثم شدت جسمها فاصبحت قدمها
فوق السلم ، وصعدت الى الداخل •

جلست على اول مقعد قابلها ، ورأت جوارها نافذة
فاطلت منها • كان القطار قد تحرك ببطء ، وتصلب رأسها
خارج النافذة وهي ترى أمها لا تزال واقفة في مكانها ،
ثابتة لا تتحرك ، وطرختها ورأسها وصدرها ورموشها
وكل شيء فيها جامد ثابت •

انفجرت شفتاها لتناديها ، لكنها تذكرت انها لم
تعد امها ، وانما هو تمثال الفلاحة القائم عند مدخل

انقرية منذ سنين لا تعرف عددها ، فقد رآته منذ ولدت ،
ولا بد انه كان هناك دائما قبل ان تولد .

كان رأسها لا يزال خارج النافذة ، لكن انفاسها
اصبحت تدخل وتخرج ، تلهث وهي جالسة في مكانها، ولاول
مرة تعرف ملمس دموعها فوق بشرة وجهها ، ومذاقها في
فمها . لكنها لم تتحرك ولم تمد يدها بطرف جلبابها او
كمها لتمسحها ، تركتها تنساب وتجري وتدخل
فمها ، ثم لعقتها بلسانها دون ان تنقلص في وجهها
عضلة واحدة ، ودون ان يخرج من فمها صوت ، ودون ان
يتحرك جفناها او تهتز رموشها ، وكل شيء اصبح
اسود ، وذاب القطار في السواد وامتزج بالليل ، كالقطرة
تذوب في جوف البحر .

في تلك اللحظة كان حميدو لا يزال راقدا فوق
الحصيرة . كان نائما وعيناه مغمضتان ، لكنه كان يرى
عيني ابيه في الضوء الخافت ، واقفا بقامته الطويلة
كجذع شجرة كافور ضربت بجذورها في بطن الارض .

سرت في جسده الصغير برودة ثقيلة ، خدّرت ساقه

وذراعيه ، بذلك الثقل الذي يصيب الاطراف اثناء الحلم
 المزعج . وظل راقدا في مكانه لا يتحرك ، شاخصا نحو
 ذلك الشبح الطويل الواقف الثابت بغير حراك ، وادرك
 ان شيئا خطيرا قد حدث او سيحدث . كتم انفاسه
 واختفى تماما تحت اللحاف المسود القذر . اصابعه
 الصغيرة تشد الغطاء حول رأسه ، واذنه اليمنى فوق
 الوسادة الصلبة ترتج من تحته بدقات قلبه ، تنبعث من
 رأسه وليس من صدره .

توقع في كل لحظة ان تمتد الاصابع الطويلة وتشد
 الغطاء عن رأسه ، وتستقر العينان الواسعتان في عينيه
 تصب فيهما الشيء الخطير . لكن اللحاف ظل مشدودا
 حول رأسه ، ودقات قلبه مسموعة في الصمت ، وحركة
 صدره مرئية في الظلام ، حركة خفيفة نكاد تكون
 غير مرئية ، كرؤوس الاشجار في ليل ساكن بغير نسمة
 هواء واحدة ، وبغير قمر، والظلمة كاللحاف الاسود
 تلف السماء والارض في تلك اللحظة الساقطة ما بين
 اخر الليل واول النهار ، قبل ان تبدأ خيوط الفجر
 وبزحف الظلام صاعدا ببطء ، كحوت ضخمة يسبح في
 محيط لا نهائي ، ترقد في قاعة بيوت القرية الطينية
 الصغيرة المتلاصقة ككوم من السباخ الاسود .

وحين فتح حميدو عينيه كان ضوء النهار يملأ
الغرفة . وايقن ان ما رآه لم يكن الا حلما ، فقفز
من فوق الحصيرة وجرى الى الشارع . كان اصداقوه
من اطفال الجيران يلعبون كعادتهم في الحارة الضيقة
المتدة امام البيوت ، يمسك كل واحد منهم بذيل جلاب
الآخر ويصنعون قطارا يصفق ويرقص ، ثم يتفككون
ويلعبون المساقة ، يختبئون وراء اكوام السباخ ،
وفي الزرائب ، وخلف زير الماء ، وداخل فتحة الفرن .

رأى حميدة تجري وسط الاطفال ، وتختفي وراء كوم
السباخ . جلست القرفصاء حتى لا يظهر رأسها من
خلف الكوم ، فظهر فخذها البيضاءان يتوسطهما
شريط رفيع من الدمور الاسمر هو سروالها . خبأت
رأسها الصغير بشعرها الاسود الناعم في التراب حتى
لا يراها احد . لكن حميدو كان يراها ، وكان هو
« المساقة » هذه المرة ، فانطلق يجري نحوها مثيرا
بقدميه الحافيتين زوبعة من التراب .

ثبت عينيه على كوم السباخ ، متظاهرا بانه لا
يراه ، وسار على اطراف اصابعه بخطوات بطيئة حذرة ،
واستدار ليختفي وراء الكوم ، ثم وثب وثبة واحدة كالفهد ،
وامسكها من شعرها بيده اليمنى . اما يده اليسرى

فقد امتدت بسرعة البرق واستقرت فوق فخذها ،
وراحت اصابعه الصغيرة الصلبة تشد سروالها • لكن
حميدة رفسته بقدمها ، ونطحته برأسها ، كما تفعل في كل
مرة حين يمسكها المساة ، واستطاعت ان تتخلص من
قبضته وجرت لتختبيء وراء كوم اخر •

لم تكن حميدة وحدها تلعب المساة • كل البنات
والاولاد يلعبونها ، وحين تجري البنات ليختبن ويجلسن
القرفصاء تتعري افخاذهن الصغيرة البيضاء ، وتظهر
سراويلهن الرخيصة القذرة كالشريط الرفيع الاسود
بين الفخذين ، يحاول المساة ان يمسه ويشده الى
اسفل ، لكن البنت تعرف كيف ترفسه بقدمها ، او بقدميها
الاثنين ، وهو ايضا لا يستسلم ، وانما بقاومها
بقدمه ايضا ، او بقدميه الاثنين • معركة صغيرة غير
مرئية ، فكوم السباخ يخبيء جسديهما الصغيرين ، لكن
الاقدام الاربع تطل من وراء الكوم ، صغيرة وناعمة لا
تعرف قدم البنت من قدم الولد ، لان الاقدام في سن
الطفولة كالوجوه ، لا جنس لها ، خاصة اذا كانت
اقداما حافية ، فالحذاء وحده هو الذي يحدد الجنس •

انكفا على ظهره حين رفسته بقدمها ، لكنه نهض

بسرعة ، وكانت هي ايضا قد نهضت ، ورأى وجهها • لم تكن حميدة • تلفت حوله ، في وجوه البنات والاولاد • جرى الى البيت يبحث عنها في الزريبة ، او في فتحة القرن ، او خلف زير الماء ، او تحت الحصيرة • خرج من البيت جريا يبحث عنها وراء اكوام السباخ ، خلف جذع الشجرة ، فوق النخلة ، في بطن جسر التربة • أدبر النهار وهبط الليل ولم يعثر لها على اثر •

وقف في الظلام على جسر التربة ، ظلّه الوحيد منعكس على صفحة المياه الراكدة العكرة • ظل طفل لا يزال طفلا ، لكن وجهه لم يعد كوجوه الاطفال الناعمة الملساء لا تعرف الذكر فيها من الانثى • لو كانت صفحة المياه نقية كالماء العذب ربما اصبحت مرآة صافية وانعكس وجهه على صفحتها بطريقة افضل • لكن التربة كانت كجميع الترع ، يختلط طينها بمائها ، ويتعرج سطحها البطيء الحركة بثبات وتجاويز كبشرة الوجه العجوز الموغل في الزمن •

اما عيناه فقد اصبحتا ايضا واسعتين ، عجوزين ، شاخصتين في الظلام ، ثابتتين ، الجفنسان لا يتحركان ، والرموش تجمدت ، ودمة كبيرة تجمدت فوق السطح •

لاول مرة تتجمد الدمعة فوق السطح ، وكانت من قبل
كدموع الاطفال لا تكف عن الحركة المستمرة الى حد الرعدة
كرعدة النجم المتلألئ ، ويخلط المرء في الطفولة بين
لمعة الدموع ولمعة الابتسام .

لكن احدا لم يكن يخطئ في تلك اللحظة . انه
حميدو الان الواقف بجسده على جسر التربة . انه ليس
طفلا . وهذه الدمعة الكبيرة ليست دمعة طفل ، وانما
هي دمعة حقيقية ، لها ملمس مادي فوق الوجه ، ولها
طعم الملح في الفم .

ملح حقيقي ، فالدموع ككل سائل الجسم تحتوي
على الملح ، وحميدو لا يعرف كيف يعيش بغير حميدة ، فهي
ليست اختا عادية ، ولكنها توأمه . والتوائم نوعان .
نوع ينشأ عن الجنينين يعيشان في رحم واحدة ، ونوع اخر
ينشأ عن ذكر واثني داخل جنين واحد .

وكان حميدو وحميدة جنينا واحدا ، ينمو داخل
رحم واحدة . منذ البداية كانا شيئا واحدا ، او خلية
واحدة ، ثم اصبحت كل شيء ينقسم اثنتين ، والملاحح
انقسمت اثنتين ، ادق الملاحح انقسمت اثنتين ، حتى العضلة
الضئيلة الصغيرة تحت كل عين انقسمت ، ولم يعد ممكنا

لاحد ان يعرف حميدو من حميدة ، حتى امهما كانت
تخلط بينهما •

لكن حميدو كان يعرف انه شيء آخر غير حميده ،
وان جسده منذ الولادة انفصل عن جسدها ، غير ان الشبه
كان شديدا ، والخلط بينهما شديدا الى حد ان الامر
كان في بعض الاحيان يختلط عليه هو ايضا فيظن
انه حميده ، ويختفي وراء جدار ، ويرفع جلبابه عن فخذه
وينظر بينهما ، وحينما تسقط عيناه على الشق الرفيع
الصغير يدرك انه حميدة ، وتسقط فوقه العصا تمسكها
اليد الكبيرة فيشد الجلباب عليه ، ويكيي بدموع
حقيقية ، تختفي بسرعة كدموع الاطفال ، ويرى
العصا ملقاة على الارض ، فيجري اليها ويأخذها ،
ويدسها في جيب جلبابه الطويل ، ومن حين الى حين تمتد
يده الى جيبه يتحسسها ، وتسري صلابتها في اصابعه
وتنتقل الصلابة الى ذراعه وكتفه وعنقه • ويشد عضلات
عنقه فاذا برأسه ينثني الى الوراء في حركة تشبه حركة ابيه ،
ويتكلم من حلقه بصوت غليظ يقلد به صوت ابيه •

وحينما تسمع حميدة صوتـه الغليظ تدرك ان
العصا معه • لم تكن ترى العصا بطبيعة الحال لكنها كانت

تعرف انه يخبئها تحت جلبابه ، في مكان ما تحت الباب •
وتجري لتهرب منه ، فيجري وراءها • ويظن من يراها
انهما يلعبان ، لكن حميدو لم يكن طفلا ، وفي
جيب جلبابه شيء يخبئه ، شيء صلب يتدلى بحذاء
فخذه كالعضو الغريب •

وحينما ترفع حميدة عينها اليه وترى وجهه
لا تعرف انه حميدو • وتتسمّر في مكانها من شدة
الدهشة او الذعر • لا تتحرك من مكانها • تتجمد كتمثال ،
يضع حميدو كفه فوق سطحه ، ويلمس الجفنين الحجريين
ويضع اصبعه بين الجفن والعين ، كاصبع كل الاطفال حين
يمسكون رأس دمية كبيرة الحجم لها شعر ولها رموش
تكاد ان تكون حقيقية •

ولم يكن حميدو قد امسك في حياته قط برأس دمية
كبيرة او صغيرة • فالاطفال في الريف لا يلعبون بالدمى ،
ولا يلعبون بالعرائس ، ولا يلعبون بالقطارات او مراكب
الورق او الكرة او اي شيء اخر • انهم لا يعرفون اللعب •
فاللعب للاطفال ، وهم ليسوا اطفالا • انهم يولدون كبارا
كيرقات الذباب ما ان تعرف ملمس الارض حتى تطير ، او
كدود المش تنفصل الدودة الجديدة عن الدودة الام فلا
تكاد تفرق بين الدود الجديد والدود القديم •

ورأى حميدو وجه حميدة مقبلا من بعيد على جسر
الترعة • وخفق قلبه بفرحة الاطفال القديمة ، لكنها
اقتربت منه • وعرف طرحة امه السوداء تلف الرأس
وتسدل فوق الكتفين والصدر والبطن • جرى اليها ووضع
رأسه على بطنها • لم يكن رأسه وهو واقف الى جوار
امه يرتفع لكثر من خصرها • امتلا انفه برائحة امه المميزة
تسترج برائحة خبيز الفرن و تراب الحقل والجميز • كان
يجب الجميز ويجري نحو امه حين تعود من الحقل
تلف الجميز في طرحتها ، ثم تجلس على الارض الى جواره ،
وتناوله الجميز واحدة واحدة بعد ان تنفخ عنها
التراب •

دفعته أمه بيدها • لكنه ظل ملتصقا بها ، متشبها
بجسمها • واستطاع أن يضع رأسه تحت ثديها الايسر •
في هذا المكان بالتحديد كان يجب أن يضع رأسه حين
ينام الى جوارها كل ليلة • كانت تنام بعيدا عنه ، في
الطرف الآخر من الحصيرة ، لكنه كان يصحو في منتصف
الليل ، وحينما لا يراها الى جواره يزحف اليها ، ويدفن
رأسه تحت ثديها •

لم تكن تبعده عنها دائما ، وتمتد ذراعاها وتلتفان

حواله وتضغط عليه بقوة ، بكل قوتها الى حد انها تؤلمه •
ويسري في جسده احساس غامض بأنها ليست أمه ،
وليست خالته ، وليست عمته ، وليست أية واحدة من
قربائه • وانما هي غريبة عنه ، وجسدها غريب عن جسده ،
غريبة تجعله يقشعر ، والقشعريرة تسري من السطح الى
العمق ، ترجّ جسده كرعدة الحمى •

ولفّ ذراعيه حولها من شدة الرعدة ، لكنه أحس
قبضة يدها الكبيرة القوية كقبضة آبيه تدفعه بعيدا وكاد
يسقط في حذن الجسر ، ورفع وجهه اليها ، ورأى عيني
آبيه الواسعتين العجوزين يجري فوق يياضهما الكبير
شعيرات دموية حمراء • اشتدت الرعدة وكاد يصرخ من
الفزع ، لولا ان يد آبيه الكبيرة أصبحت فوق فمه ،
وصوته الغليظ أصبح كالفتحاح :

— تعال ورائي •

الليل مظلم بغير قمر ، والشفق لم يطلع بعد ، وكل
شيء في القرية ساكن نائم في تلك اللحظة الساقطة ما بين
آخر الليل وأول خيوط النهار قبل آذان الفجر ، وقدم
آبيه الحافيتان الكبيرتان تنتقلان فوق الارض المتربة بسرعة

كبيرة ، يوشك أن يجري ، حميدو خلفه ، يكاد يلمس
ذيل ثوبه •

أراد أن يفتح فمه ويسأل أباه ، لكن أباه توقف عند
سور صغير يفصل الطريق الزراعي عن قضبان القطار •
وراء هذا السور كان يختفي حميدو حين يلعبون
« المساقة » • ناوله أبوه شيئاً طويلاً ، صلباً وحاداً ، لمع
في الظلام كالسكين •

دس حميدو السكين في جلبابه فسقط في قاع جيبه
وتدلى بجذء فخذ • أحس طرفه المدبب الحاد فوق لحمة
فتقلصت عضلات فخذه وساقيه وقدميه ، وتسر في
مكانه • لكن صفارة القطار الحادة جعلت الأرض تهتز
تحت ، فثبت قدميه في الأرض يقاوم أي حركة كجواد
جامح ، لكن يد أبيه الكبيرة دفعته في ظهره بقبضتها القوية ،
وصوته الغليظ المنخفض كالضحج :

— العار لا يغسله إلا الدم • اذهب وراءها !

واندفع حميدو نحو القطار ، لكنه استدار لحظة قبل
أن يركب ، ورأى أباه واقفاً في مكانه ، متسراً في
الأرض ، ثابتاً لا يتحرك ، والجفنان أيضاً ثابتان ، والشعيرات

الدموية فوق البياض تجمدت كخيوط من السدم رسمت
باليد فوق لوحة حقيقية ♦



في تلك اللحظة كانت حميدة تضع قدمها فوق سلم
القطار لتهبط منه ♦ وكأننا سقطت في بحر ، بحر هائج ♦
الامواج ليست ماء ولكنها بشر ♦ رجال ونساء وأطفال
يرتدون الاحذية الجلدية السمكة ، وعربات كالقطارات
تجري صفوفها صفوفها فوق شوارع لامعة بغير تراب ،
تنفرع وتنشأ ثم تنفرع بغير نهاية كشجرة رأسها في
السماء وجذرها في بطن الارض ، والبيوت عالية شاهقة
متراسة في كتلة واحدة ضخمة تحجب السماء ، فلا ترى
فيها العين شبرا واحدا ، والضجيج والاصوات والابواق
نصم الاذن فلا تعود حميدة تسمع شيئا ♦ لكن قدميها
الحافيتين كانتا تنتقلان وحدهما فوق الاسفلت ، القدم
ومن خلفها القدم الاخرى ، تلك الحركة الطبيعية ، حركة
المشي التي يتعلمها الانسان منذ الصغر ♦ وكان من الممكن
أن تستمر على هذا النحو دون توقف ، فهي لا تعرف
طريقها ، ولا تعرف أين يبدأ وإلى أين تنتهي ، لكن حذاء
جلديا سميكاً داس على أصابع قدميها اليسرى وكاد يفرمها،

فترنحت لحظة ، فاذا بعربة ضخمة تكاد تدهمها ، وصرخت حميدة • انفتح فمها عن آخره وخرج منه صوتها المكتوم في صرخة حادة طويلة ، طول صرختين أو ثلاث صرخات ، أو عشر ، أو مئة ، أو ألف • صرخة متتابعة ، متعاقبة ، متصلة في صرخة واحدة طويلة •

ابتلع الضجيج الصاحب صرختها كما تبتلع أمواج البحر قطرة ، أو قشة ، أو فراشة ، أو عصفورا وليدا لا يطير • لم يسمع صوتها أحد ، وظلت الدنيا كما كانت تهدر كالشلال ، تفتت مياهه الساحقة أجساد التماسيح وأشلاء السفن ، وتذيبها ، وتظل مياهه هي مياهه ، بيضاء كما كانت •

سارت حميدة تعرج بقدمها الجريحة ، وجلست في ركن بجوار سور بعيد عن العربات والناس • أسندت رأسها الى السور وحملت بعينيها أمامها • كل شيء من حولها يدور في غموض ، يلفّه الضباب ، كالحلم ، أو الكابوس ، الذي ستفيق منه بعد قليل ، وتقفز من فوق الحصيرة كالعصفورة • اتكأت بيدها لتقفز ، لكن كفّها لمس بطنها ، فانقضت فجأة عن عينيها غمامة ، ولاول مرة يصبح كل شيء أمامها قابلا للفهم ، ليس ذلك الفهم المدرك

لحقائق جديدة ، ولكنه الفهم الغريزي المبهم الذي ينبعث
من خلايا الجسد المرهقة في لحظات الراحة أو الاسترخاء
الشديد •

نامت في مكانها ثم صحت جائعة • لمحت الى جوارها
مخبزا ، رصت أمامه أرغفة الخبز صفوفا صفوفا • مدت
ذراعها النحيلة وأمسكت بأصابعها الصغيرة رغيفا • قربته
بسرعة الى فمها وكادت تقضمه بأسنانها ، لكن يدا كبيرة
لها أصابع طويلة التفتت حول ذراعها •

شهقت •• ارتفع صدرها بالشهقة فظهر ثدياها
الصغيران من تحت الجلباب الواسع كزيتونتين ، وبرز
بطنها المنتفخ كبالونة الاطفال ، والطرحة السوداء لا تزال
تغطي رأسها وشعرها وتنسدل على كتفيها حتى أسفل
ظهرها قبل ردفها الصغيرين بقليل •

رفعت عينيها المذعورتين ورأت أمامها عينيْن واسعتين
تحميلقان فيها • شدت طرحتها وأخفت بها نصف وجهها
كما تفعل نساء قريتها • ظهرت عينيها الوحيدة واسعة
سوداء فيها نظرة مشدوهة لا تزال بها لمعة طفولة ساذجة •
لمعة عين كانت مغمضة ، ففتحت لأول مرة على عالم بغير

حدود ، وصنع الذعر حولها عضلة مشدودة بدت كالدائرة المفتوحة أو كعلامة استفهام مبتورة الذيل ، والدموع الجافة خلعت فوقها طبقة كالسحابة الخفيفة ، يزحف نحوها من زاوية الانف احساس جديد بأنها أثنى وليست ذكرا ، أنوثة لم تكتمل بعد ، ولم يعرفها أحد بنفسها ، ولكنها هي التي اكتشفت نفسها بنفسها منذ لحظات ، فاذا بها فجأة طازجة لا يزال يعلوها الندى •

تملّصت من اليد الكبيرة واستطاعت أن تفلت • وانطلقت تجري • جرى وراءها • دخلت في شارع واختبأت وراء باب من الابواب • أطلت برأسها فلم تجد أحدا • خيل اليها انها نجت ، لكن الذراع الطويلة امتدت من الخلف وأمسكتها من رقبتها ، وصوت خشن غليظ دب في أذنها :

— قبضت عليك يا لصة ! أمامي الى القسم !

استسلمت • تركت ذراعها النحيلة البيضاء في قبضته ، قبضة يد غليظة كبيرة ، لها خمسة أصابع ، مفاصلها بارزة وعظامها مقوسة ، والعروق من تحت الجلد نافرة ، وتحت الاظافر السمكة طبقة طينية سوداء •

زحفت عيناها فوق ذراعه الطويلة ورأت كتفيه • كتفان عريضتان ، فوق كل كتف صف أفقي من خمسة أزرار نحاسية ، يفصل بينهما عنق غليظ ، التفتّ حوله ياقة عالية ، اسودّت من الداخل بسبب التراب الذائب في العرق ، تدور الياقة حول عنقه باحكام ، ثم تهبط من الامام فوق صدره في صف رأسي من عشرة أزرار نحاسية • كانت حميدة قد تعلمت شيئا من الحساب في المدرسة الالزامية ، فأخذت تعد الازرار • خمسة فوق كل كتف ، أي عشرة فوق الكتفين ، وعشرة فوق الصدر ، فيكون المجموع عشرين زرا •

النهار كان قد انتصف ، والشمس أصبحت متوهجة ، ينعكس قرصها الاحمر فوق الازرار النحاسية المستديرة ، فنبذوا كعشرين قرصا شمسيا تدمع العين لمجرد النظر اليها ، ولا تقوى على الحملقة فيها فتطرق الى الارض • لكن الارض تلتهب تحت قدميها الحافيتين بسخونة لم تعدها في الارض من قبل ، وحذاؤه ذو الرقبة الطويلة يدبّ بصوت معدني غريب ، يشبه احتكاك الحديد بالحديد • وخطوته واسعة ، وقدمه حين تركز على الاسفلت تصبح ثابتة ، والقدمان ترتفعان الى ساقين

طويلتين داخل بنطلون من قماش سميك له جيب طويل كالسرداب تختفي فيه آلة صلبة حادة ، وتتدلى بحذاء فخذه .

دخلا من الشارع الواسع الى شارع ضيق . الاصابع الطويلة لا تزال تلتفّ حول ذراعها . لكنها ليست خمس أصابع كما كانت . أصبحت أربع أصابع . أما الاصبع الخامس فقد انفصل عن بقية الاصابع وصعد وحده الى أعلى ، فوق الذراع الناعمة ، حذرا متلصصا ، ثم دفن رأسه الاسود الغليظ تحت الابط الاملس الطفولي الذي لم ينبت فيه الشعر بعد .

شدّت ذراعها . لكن الاصابع الاربعة تقلصت على لحمها الطري ، والاصبع الخامس امتد من تحت الابط واصلا ببوزه الاسود المدبب حتى الارتقاعة الناعمة لبرعم الثدي ، يضغط عليه ضغطات حذرة مرتعشة متقطعة ، تزدد شدة في ثنية شارع ، أو خلف جدار ، وتخفّ أو تنعدم تماما في وسط الشارع ، وأحيانا يتراجع الاصبع الخامس سريعا ويلتصق باخوته الاربعة حين يمران أمام حشد من الناس .

ملأت أنفها فجأة رائحة تننة . ووجدت نفسها في

زقاق ضيق مظلم • أمام باب خشبي صغير رأته يتوقف •
أخرج من جيبه مفتاحا • دفعها أمامه الى الداخل ثم أغلق
الباب •

لم تر شيئا أول الامر ، فالظلام دامس • أشعل بعود
نقاب مصباح كاز صغيرا فظهرت على الفور أرض بلاط
ضيقة ، في أحد أركانها بساط يشبه الحصيرة ونسافة
حديدية صغيرة فوقها قلة ماء • جدران الحجرة تبدو في
الضوء الخافت رمادية يعلوها سواد كالهباب الذي يحدث
من موقد الكاز • على أحد الجدران مسمار عليه بدلة من
قماش سميك يشع من فوق صدرها وكتفيها العريضتين
المحشوتين أزهار نحاسية صفراء ، لمعت في الظلام كعيون
مفتوحة مريضة بالتهاب الكبد الفيروسي • على الأرض
استقر الحذاء الضخم برقبته الطويلة كحيوان بغير رأس ،
والجواره سروال أبيض اصفر ظهره واسود بطنه ، تفوح
منه رائحة بول قديم •

رفعت رأسها من فوق البلاط فرأته واقفا عاريا • كنفاه
العريضان أصبحتا نحيلتين ضامرتين عظامهما بارزة ،
وساقاه أصبحتا رفيفتين معوجتين ، وقدماه الضخمتان
السميكتان المرتفعتان عن الأرض أصبحتا لا يفصلهما عن

البلاط شيء ، والآلة الحادة الصلبة التي كانت مختلفة في
جيبه أصبحت ظاهرة •

شهقت بدهشة مليئة بالذعر • قاومت الذعر برد فعل
غريزي • لكنه طرحها على الأرض ، وشد باصبعه الغليظ
جلابها من فتحة العنق فانشطر الثوب البالي شطرين ، ولم
يكن هناك ملابس داخلية تحت الجلاب •

قالت بصوت ضعيف مشروخ :

— انت مين ؟

رد بصوت آمر غليظ :

— أنا الحكومة •

قالت :

— ربنا يطول عمرك سيبيني أروح •

رد بصوت آمر غليظ :

— تروحي فين يا بت ، انت محكوم عليكي •

كل شيء أصبح يتحرك بسرعة فائقة ، بسرعة الانفاس
التي تلهث ، وبسرعة العضلات التي تنقبض وتنبسط ،
سرعة غير عادية لا تحدث الا في الاحلام ، لكن الحلم
لم يختلط هذه المرة ، لم يكن هناك بائع يضرب بالعصا ،

وانما هو ذكر له شارب خشن يحنك بوجهها ، وتسد رائحة التبغ أنفها ، وشعر صدره غزير ، تلاحمت شعراته الطويلة والتصقت فوق الجلد بعرق سميك لزج •

وكل شيء توقف فجأة • لحظة سكون تشبه لحظة الموت • رفعت رأسها من فوق البلاط وتلفتت حولها • رآته راقدًا على ظهره ، عيناه مغمضتان ولا يتحرك • ظنت انه مات ، لكن سخيًا خافتًا بدأ ينبعث من فمه المفتوح ، ما لبث أن ارتفع وأصبح كخزير ساقية عتيقة يجرها ثور منهك مريض • رفعت جسمها بهدوء من فوق الارض ، وشدّت طرفي جلبابها المشطور فوق صدرها وبطنها • سارت على اطراف اصابعها الى الباب • حركت رأسها بهدوء ونظرت خلفها • رأت العيون العشرين الصفراء مفتوحة تحملق فيها • فتحت الباب بسرعة • رأت الشارع الواسع أمامها ، فانطلقت فيه بكل قوتها تجري هاربة بغير توقف •



في تلك اللحظة ، كان حميدو قد هبط من القطار ، وأصبح ظهره ناحية الجنوب ووجهه ناحية الشمال ، وعيناه أمامه تنظران ، تحمقان في الوجوه المحتشدة خارج محطة

باب الحديد ، المحطة الرئيسية القديمة لمدينة القاهرة ،
وقدماه الحافيتان تنتقلان فوق الارض الاسفلت ، وجلبابه
طويل واسع ، تهتز من تحته السكين ، وتتدلى بحذاء فخذه
كطرف صناعي أو عضو مزروع •

ارتطم بوز السكين الحاد المدب بلحم فخذه فاقشعر
جسده ، وسرت القشعريرة في عنقه ورأسه • ترنج ، وكاد
يسقط بين الاحذية الجلدية السمكة ، لكنه شد عضلات
ساقيه وظل منتصباً فوق قدميه الحافيتين ، وعيناه تائهتان
في الخضم الواسع المتلاطم ، ترتفعان مع قمم العمارات
الشاهقة ، وتهبطان مع شعاع الشمس المنعكس على
الاسفلت اللامع ، وتدوران مع حركة الميدان المستدير ،
وفي مركز الدائرة تمثال حجري ضخّم له رأس انسان ،
تلفّ حوله صفوف من البشر ، والاعلام ، و صفوف من
العربات ، تلفّ وتدور ثم تتفرع منتشرة في خطوط
مستقيمة متعددة ، لا تلبث أن تتشابك وتصبّ في ميدان
آخر ، ثم تتفرع ، وتنقسم الفروع الى فروع ، تتفرع ،
وتتشابك ، وتتفرع بغير نهاية •

أخفى عينيه يديه ، وأسند رأسه الى عمود نور •
غلبه النوم فنام وهو واقف على قدميه • فتح عينيه على
صوت • تلفّت حوله • رأى الشارع الواسع هادئاً خالياً

من الناس والعربات ، غارقا في ظلمة الليل • ثقب الظلمة بعينه الحادثين • لمح شبعا يجري من بعيد ، قدماء حافيتان ، والجلباب الواسع الطويل يرتفع فوق البطن ارتفاعة مرئية واضحة •

انفجرت شفتاه وتدافعت أنفاسه لاهثا : حميدة • وانطلقت قدماء فوق الاسفلت ، يده اليسرى مرفوعة أمامه تشق الظلمة ، ويده اليمنى في جيبه تتحسس النصل الحاد الصلب • توقف الشبح في ركن مظلم • اقترب منه حميدو بخطوات بطيئة حذرة • أصبحت المسافة بينهما خطوة واحدة • سمع الصوت الخشن يهمس كالفحيح : « العار لا يفسله الا الدم » • انتزع السلاح من جيبه وأخفاه خلف ظهره • كشف الركن المظلم فجأة ضوء كشاف متحرك • رأى وجه أمه من تحت الطرحة السوداء • صرخ • دوت صرخته في الليل فتوقف الضوء فوق وجهه • اقترب منه شخص لم ير عينه في الظلام ، لكن على كتفيه وفوق صدره رأى صفيين من العيون المحملقة المستديرة تشع ضوءا أصفر •

انفجرت شفتاه ليسأل ، لكن كفا كبيرة غليظة سقطت فوق صدغه ، تبعثها كف أخرى فوق الصدغ الآخر • رفع

ذراعه ليقاوم الصفعات لكن خمسة أصابع التفتت حول
ذراعه • استعان بذراعه الثانية فارتفعت في الجو ذراع
خشبية كالشومة سقطت فوق رأسه •

حينما فتح حميدو عينيه شعر بصدادع شديد •
تحسس رأسه وعثر بين الشعر على الجرح تغطيه قشرة من
الدم الجاف • هرشها فسقطت على الارض الى جوار حذاء
ضخم يرتفع الى رقبة جلدية تحوطها ثنية بنطلون من قماش
سميك ، والساقان طويلتان ترتفعان الى صدر مربع عريض
رشق عليه من الامام وفوق الكتفين صفان من الازرار
الصفراء المستديرة ينعكس عليها ضوء مصباح خافت •

داس الحذاء الضخم على قشرة الدم وهرسها
بوحشية ، ثم دب فوق الارض فارتفع في الجو صوت
غليظ خشن :

— ما اسمك ؟

— حميدو •

مشت موسى الحادة فوق جلدة رأسه فأصبحت
صلعاء ، وسقط شعر رأسه الغزير في جردل مع جلبابه
الطويل الواسع • كانت الشمس مائلة في أول الصباح

المبكر ، فرأى ظل شخص طويل عريض الكتفين يتبعه فوق الارض . توقف الظل . تحرك فتحرك . ضرب الارض بقدمه فسمع صوتا معدنيا غريبا لم يعهده من قبل حين كان يضرب الارض بقدمه الخافية . نظر الى قدميه . رأى الحذاء السميك الضخم يرتفع في الرقبة الجلدية الطويلة والبنطلون من القماش السميك وداخل كل منهما ساقه الحقيقية النحيلة ، والساقان ترتفعان الى صدر عريض مربع مغلق بصف من الازرار النحاسية ، والكتفان عريضان محشوتان بالقطن أو القش .

داس بجذائه على الارض في خطوات بطيئة وجلة . داخل كل فردة حذاء ترقد قدمه النحيلة الصغيرة منكشمة، منضغطة تحت الجلد السميك ، أصابعها رفيعة بيضاء ، لا يجري فيها دم ، ولا تسري فيها حركة ، ميتة أو شبه ميتة ، وحركتها داخل الحذاء معدومة . الحذاء هو الذي يحركها ، يرفعها ويخفضها ، وينقلها فوق الارض خطوة خطوة . وفي كل خطوة يصطك حديد الكعب بالاسفلت محدثا صوتا معدنيا وبطيئا كاصطكاك حافر عجل مريض مساق الى المذبح .

توقف ، فتوقف الظل الاسود المرسوم بعناية فوق

الارض ، رأسه حليق أملس انعكست عليه الشمس ،
والعينان ثقبان في الرأس ينفذ منهما الضوء ، والعنق
عضلاته مشدودة ، وعضلات الظهر مشدودة ، وجدار
البطن مشدود من تحته معدة مشدودة ضامرة لم يدخلها الا
دخان أسود ، ولعاب أسود ، وكسرة خبز مقددة غمست
في عسل أسود ، مع قطعة من بصل، أو قطعة مخلل تلسع
كالعلقم ، يصلح بالعلقم طعم العسل الاسود ، ثم يصلح
طعم العلقم بالدخان الاسود ، يشفطه بأنفه وفمه وبلعومه
ليملأ به صدره ، ويضغط به على معدته فيتجشأ كالذي
شبع .

لسعه كرباج رفيع خلف عنقه فتحركت قدماه فوق
الارض . القدم اليمنى أولا ثم القدم اليسرى . اصطك
الحديد بالاسفلت في دقات منتظمة ، كدقات الساعة ،
أو ضربات القلب : كب . دب . كب . دب . شمال .
يمين . شمال . يمين .

دوى الصوت القوي الخشن في الجو :

— قف !

اصطكت فردتا الحذاء بعضهما البعض ، والتصقت
ساقاه وفخذه بعضلات منقبضة . امتدت يده اليمنى في

جيه واستقرت فوق آلة القتل الصلبة ، تمتد صلابتها
بحذاء فخذه وتنتهي برأس معدني مدبب ومثقوب •

صاح الصوت الخشن :

— انتباه !

التفت أصابع يده اليمنى حول الآلة ، أربعة أصابع
فقط وانفصل الابهام ليصبح وحده فوق الزناد ،
واحدي عينيه صوبت الى النقطة المحددة الثابتة في منتصف
المسافة بين العينين المفتوحتين •

فتح فمه ولهث • لكن يدا قوية ضربته على بطنه
والصوت الخشن دب في أذنيه :

— اغلق فمك واكتم نفسك •

أغلق فمه وكتم نفسه •

صاح الصوت الخشن الأمر :

— العار لا يغسله الا الدم !

وضغط بابهامه على الزناد •

سمع دويًا لم يسمعه من قبل ، ورأى جسدا يسقط
على الارض يجري من تحته سائل أحمر عرفه على الفور •
انه دم الشاة • فاليوم هو العيد ، وهو لا يزال واقفا

يحملق في العينين المفتوحتين ، الساكتتين ، لا يرمش لهما
جفن ، ثابتتين بنظرة ميتة ، اتسعت وامتلاّت بالذعر ،
وانتقل الذعر اليه فارتجفت ساقاه النحيلتان تحت الجلباب
الواسع ، وجرى ليدفن رأسه في صدر أمه ويكي .

ومسح دموعه في صدر أمه ثم رفع عينيه إليها ،
ورأى عيني أبيه تكسوهما الشعيرات الدموية . والازرار
النحاسية الصفراء فوق الصدر والكتفين كانت لهما لمعة
خاصة ، والصوت الاجش كانت له خشونة آمرة مخيفة :
أتبكي كالنسوان ؟

وعاد حميدو الى مكانه من الصف . وقف منتصباً ،
تحت قرص الشمس ، عيناه بلون ضوء الشمس ،
حمراوان ، سوادهما هرب تحت الجفن في الظل ، في المكان
الامين الرطب . الجو في الخارج شديد الحرارة .
الاسفلت ملتهب ، أذايته السخونة الشديدة فأصبحت
كعوب الاحذية تنغرز فيه كما تنغرز في الارض الطينية .

توقف حميدو لحظة ليشد حذاءه . تخلف خطوة عن
الصف . لسعه الكرباج على قفاه . قفز ليلحق بالصف
لكنه انكفاً على وجهه وسقط على الارض .

قبل لحظة السقوط كان حذاؤه قد انخلع ، وكان الهواء الساخن قد اندفع في صدره على شكل كلمة منطوقة لها صوت أدرك انه صوته حين ينطق • وأدرك ان جسده هو الذي سقط على الارض وليس جسدا آخر ، وان الدقات المنتظمة المسموعة في أذنه تنبعث من صدره • وشعر بزهو لقدرته على تمييز جسده عن جسد الشاة •

ظهر الزهو في عينيه ، وكان وجهه لا يزال ناحية الارض ، فطارت البصقة من الفم الغليظ واستقرت فوق مؤخرة رأسه ، تبعثها سبة مألوفة للأذن (اسم من أسماء الاعضاء التناسلية المؤنثة) ، تبعثها لكمة قوية ببوز حذاء سميك في ظهره فوق الكلية مباشرة •

هذه اللكمة ببوز الحذاء لم تكن تحدث كل مرة بهذه القوة نفسها • وكنت أرى حميدو ينهض بعدها ويجري ويدخل الصف • لكن اليوم كان العيد • وسيده سيحضر الحفل بشخصه لا ببندوب ، ومن الطبيعي ان أي خطأ لا يغتفر ، وان كان زلة قدم • لم تكن زلة القدم في ذلك اليوم مجرد زلة قدم ، ولكنها تصبح شيئا آخر أشد خطورة • لان الصف يصبح مشوها • وحين يشوه

صف تشوه الصفوف الاخرى بطبيعة الحال • وهذه
كارثة •

واختلطت الاشياء أمام عيني حميدو • لم يكن ذلك
لقصور في قدرته على الملاحظة ، بسبب ضيق الوقت
أيضا • فالوقت في مثل هذا اليوم الهام يصبح ضيقا ، ووقع
الحياة يصبح سريعا لاهثا ، فلا يمكن لانسان أن يتنفس
التنفس الطبيعي ولا بد أن يلهث الجميع •

ولهث حميدو كغيره من البشر فلمحته عين • دائما
هناك عين تلمح ، ترقب الاشياء ، وتدس أنفها بتطفل
شهواني في حياة الغير أو موتهم • لا تترك الحي يستمتع
بحياته ، ولا الميت يستمتع بموته • وضم حميدو ساقه
باستحياء (كان قد اكتسب قدرا من الحياء) ، وأفسح
الطريق لموكب العربات • لكن الوقت كان ضيقا الى حد ان
ساقه اليسرى لم تجد متسعا من الوقت لتتحرك وظلت
مدودة في الطريق ، حافية ، وأصابع القدم الخمسة
منتصبة ، تهتز بحركة مرئية بالعين المجردة •

توقف الموكب مشدوها أمام المشهد الذي لم يحدث
من قبل ولا من بعد • لم تذكر كتب التاريخ حادثة من هذا

القبيل • لكن ما يكتب في التاريخ شيء والذي يحدث في الواقع شيء آخر • وما حدث في الواقع كان يستحق أن يدخل التاريخ لجسامته ، لكن التاريخ بطبيعته لا يفتح بابه للحوادث الجسيمة ، خاصة اذا كان بطلها حميدو •

لم يشعر حميدو ببطولته رغم الزحام الذي أصبح حوله • أعداد هائلة من البشر تجمعت في لحظة خاطفة • وامتلات المساحات الخالية بين العمارات بالاجساد ، وانسدت الابواب والنوافذ بالرؤوس ، وترك الناس مكاتبهم ودواوينهم وأغلقوا حوانيتهم واصطفوا صفوفًا متلاصقة يستمتعون بالمشهد • لا أظن ان أحدا تخلف ، صغيرا أو كبيرا ، ذكرا أو أنثى ، من الطبقة العليا أو من الطبقة الدنيا ، فالكل يريد أن يستمتع ، واللذة عامة ، ومشروعة بشرط أن تكون في الخفاء •

وكان حميدو لا يزال في موقعه من الارض ، وعيناه مغضتان بطبيعة الحال بسبب الموت ، لكنه رأى (ورؤية الميت أشد حدة من رؤية الحي) رجالا كثيرين من حوله • عرف انهم رجال بسبب رؤوسهم الحليقة ، وخرائيمهم المطاطة ، وأزرارهم النحاسية، وآلات القتل الصلبة المتدلية بجذء أفخاذهم •

حاول أن يفتح فمه ليدافع عن نفسه ، ليحكي قصته منذ ولدته أمه ، لكن سيده كان حاضرا ، وفي حضور سيده يصبح الوقت ضيقا ، ولا يكون هناك متسع لاحد ، والحكم بطبيعة الحال لا بد أن يصدر أولا ، ويوقع عليه بالعلم ، وينفذ ، ثم يتسع الوقت بعد ذلك لاي شيء آخر .

وصدر الحكم ضد حميدو فوق صفحة كاملة من صفحات دفتر الاحكام ، وكان القانون يقضي بأن يقرأ حميدو المحضر قبل أن يوقع عليه بالعلم . ولم تكن الحروف واضحة بسبب رداءة الخط والسرعة في كتابة المحضر ، وأصبح من الصعب على حميدو أن يفك الخط ولم يكن حميدو قد تعلم القراءة .

لكنه استطاع أن يلتقط كلمة أو كلمتين من كل سطر . ودهش لقدرة رجال البوليس على تحويله من جندي مجهول الى بطل ، وأن تكون بطولته خارقة للعادة الى حد ان حركة أصابع قدمه الحافية في وجه سيده أصبحت حركة تمرد . ولم يعد حميدو قادرا على كتمان زهوه ، وراح يحرك أصابع قدمه حركة بطيئة مليئة بالكبرياء .

وارتفعت جميع الاكف بالتصفيق . وكان سيده في

الصف الاول • فارتفع كفّاه أيضا بالتصفيق (حركة سيده كحركة التاريخ لا يمكن أن تتجاهل الجماهير) •
 وحينما تحركت ذراعاها الى أعلى وهو يصفق ، سقط فوق الارض الساندويتش المحشو بلحم الشاة الذي كان يخفيه تحت ابطه ، التقطه على الفور طفل كسيح كان يزحف بين الصفوف بأكياس اللب •

وابتسم حميدو رغم انه لم يدرك شيئا مما يدور حوله ، فالمشهد لا ارادي ولا فضل له فيه ، وغير متقن أيضا ، يفتقر الى الخبرة ، وتنقصه الثقافة الضرورية ، والاطلاع على التراث • ولم يكن حميدو قد قرأ كتب التراث ، وعلى الاخص قصص الحب العذري ، حين كان الحب نظيفا والانسان شريفا ، لم تخلق له بعد أعضاؤه التناسلية •

لكن آدم اقترف الخطيئة العظمى (كما كانت تحكي له أمه) فاذا بعضو قبيح المنظر ينمو بين فخذيّه • انتقام الهي عادل على حد قول أمه • وهنا خطر له سؤال لم يخطر له من قبل (ولعل سبب ذلك ان جسده كان ميتا فأعطى نفسه حق التفكير في المقدسات) ، وكان السؤال هو : كيف اقترف آدم الخطيئة قبل أن يخلق له هذا العضو ؟

وأراد أن يطرد عنه هذه الفكرة ، فالتفكير في مثل هذه الامور عمل غير أخلاقي ، خاصة في حضور سيده . واختلس حميدو نظرة سريعة بين فخذه فلم يجد العضو ، ووجد مكانه شقًا صغيرا يشبه الشق الذي كان يراه في جسم حميدة . واعتقد ان في الامر خطأ ما ، وان أجساد الموتى اختلطت بعضها ببعض ، وعند الفرز النهائي أعطوه جسد امرأة . دائما هناك خطأ في الفرز النهائي . فالموظف الذي يفرز ضعيف البصر بسبب الدرن الرئوي . وهو الوحيد المكلف بالفرز . (الميزانية لا تسمح بموظف آخر) وعليه أن ينقل الاسماء من كشوف الفرز الابتدائي الى كشوف الفرز النهائي . وحروف بعض الاسماء متشابهة ، وأسماء الاناث لا يفرقها عن أسماء الذكور الا التاء المربوطة ، أمين يصبح أمينة ، وزهير يصبح زهيرة ، ومفيد يصبح مفيدة ، وحميدو يصبح حميدة . أي انها ليست الا جرة قلم ويصبح الرجل امرأة .

وكان حميدو يحب أن يكون امرأة أحيانا ، وفي أحيان أخرى يقاوم ذلك مقاومة شديدة . فالمرأة في ذلك الوقت كانت تكلف بأعمال الخدم المهينة ، كأن تمسح حذاء الرجل بعد أن يخرج من دورة المياه أو تناوله كوب ماء

وهو راقد فوق ظهره يتجشأ بصوت عال (كان مسموحا
للرجل فقط أن يتجشأ بصوت عال) ، أو تغسل جوربه
التنن ، أو سرواله الاكثر تنانة بسبب البول وعدم توافر
الماء والصابون •

ويحاول حميدو تصحيح الامر ، لكن التصحيح لم
يكن سهلا بأي حال من الاحوال • اذ عليه دائما أن يثبت
انه ليس امرأة ، وفي كل مرة يستدعون الطبيب الشرعي ،
الذي ينزع سرواله القذر بتأفف ، وينظر بين فخذيه بكل
وقاحة • وأحيانا لا يستوثق تماما من مجرد النظر ، فيمد
أصابعه الانيقة ذات الاظافر المشدبة ويفحص العضو
المنكمش ، المذعور ، ويقيسه من جميع الزوايا بمسطرة مدرجة من
البلاستيك ، ويسجل الارقام بقلمه الباركر في دفتر خاص ،
ثم يرسلها داخل مظروف مغلق بالشمع الاحمر الى قسم
الفيش والتشبيه •

وهذا هو القسم الذي يختلط فيه الجابل بالنابل ،
وتختلط فيه بصمات أصابع اليد مع أصابع القدم مع غيرها
من أعضاء الجسم • وتتشابك ذيول الارقام مع رؤوسها ،
ويسقط منها أجزاء ، وتنطمس أجزاء • والسبب في ذلك
رداءة الحبر المعشوش (الغش كان منتشرا في ذلك الوقت

ويمكن لجردل ماء أن يضاف الى زجاجة حبر) •

وظلت حقيقة أمره بهذا الشكل معلقة لبضع سنوات ،
لا يقطع أحد فيها برأي ، ولا يستدعيه أحد لاعادة الكشف •
وظن حميدو ان الموضوع أصبح منسيا أو كأنه ما كان •
وسار في الشارع باطمئنان ، الى حد انه دخل محلا للحلاقة
ليخلق لحيته الطويلة • وجلس على الكرسي المريح المتحرك ،
وهز قدميه باسترخاء ، وشد احدى الجرائد القديمة من
فوق المنضدة ، وقلب صفحاتها بغير اهتمام • لكنه ما أن
وصل الى الصفحة الاخيرة حتى اتسعت عيناه بالدهشة •
كانت صورته منشورة في ذيل الصفحة ضمن صور
المشبهات ، ولم يكن البغاء محرما في ذلك الوقت ،
فأمسكوه وأعادوه الى الخدمة •



كانت حميدة في ذلك الوقت قد اهتمت الى مهنة
شريفية (الشرف في ذلك الوقت كان معناه الخدمة
باليوت) • تلقنت أول درس في الخدمة ، وهو أن تنادي
الاناث بكلمة « ستي » وتنادي الذكور « سيدي » •
وأدركت ان رضا أسيادها عليها يزيد كلما زادت اطراقة
رأسها وهي تمر أمامهم ، وأصبحت تثني نصفها الاعلى

فوق النصف الاسفل بصفة دائمة ، فالببت يحميها من
الشارع ، والشارع فيه رجل يتربص بها ولا يكفّ عن
مطاردها •

المطبخ كان حياتها ، وبالذات البقعة المربعة الرطبة
أمام الحوض ، ويدها الصغيرتان في الماء الجاري من
الصنبور ، ليل نهار ، وصيف شتاء ، وعيناها السوداء
تواجهان الحائط من تحت طبقة الدموع الجافة ، تذيبها
من حين الى حين نظرة ملتبهة حادة كالسيف ، تشق
الحائط ، وتنفذ الى حجرة الطعام ، حيث مائدة الاكل
المستديرة تحوطها تسعة أفواه ، تنفتح وتنغلق على شديدين
منتفخين ، يتحرك الفك الاعلى فوق الفك الاسفل ،
والاسنان كتروس الطاحونة تصطك وتهرس ، ويتراكم
في الحوض صفوف الصحن الفارغة ، تعلوها طبقة دهنية
متجمدة ، وتمتلئ صفيحة القمامة حتى الحافة ببقايا الاكل
غير المهضوم ، وتنسد ماسورة المرحاض ببقايا الاكل
المهضوم •

وفي منتصف الليل ، وبعد أن تمسح أرض المطبخ ،
تدسّ في فسها قطعة خبز ، وتشد بأسنانها على قطعة جلد
أو قطعة عظم داخلها بقايا نخاع ، ثم تضع جسمها الصغير

بجلابها المبلل فوق الدكة الخشبية وراء باب المطبخ ، وتترك
أصابعها المتورمة المحترقة تنزّ سائلا أصفر بمثل حرارة
الدم ، وأذنيها الصغيرتين تتابعان الفحيح الذكري العدواني
المنبعث من حجرة النوم يتبعه الانين الانثوي الذليل
وقعقات مفاصل السرير حين يرتج *

أغضت عينيها ونامت * تخفف جسدها من العبء ،
وزال الالم من يديها وقدميها ، وأصبحت تتنفس بهدوء ،
هدوء مألوف ، تسربت من خلاله صور مألوفة ، راقدة
في قاع الجمجمة ، قاع مظلم ، تتراقص فيه نؤابة متهاكة
من الضوء ، وتبدو الجدران طينية سوداء يلمع فوقها
قش التبن الاصفر ، ترتفع الى فتحة مستديرة كالنافذة ،
وتهبط الى بساط كالحصيرة ، ترقد على الطرف البعيد
أمها ، طرختها السوداء حول رأسها ، ويدها كالوسادة
تحت صدغها ، وفي الطرف الآخر تنام حميدة ، عيناها
نصف مغلقتين كعيون الاطفال حين ينامون على قصة
عفاريت مخيفة ، وشفتاها نصف منفرجتين عن أسنان
صغيرة شفافة نبتت حديثا مكان الاسنان اللبنية ، وأنفاسها
لها رائحة الاطفال حين يتنفسون كتنفس الزهر المغض قبل
طلوع الفجر وسقوط الندى ، ونهداها مديان تحت

الجلباب الواسع كبرعمين نبتا منذ لحظات ثم انضغطا فجأة تحت اليد الكبيرة المفلطحة كالبلطة ، التي أصبحت تزحف متسللة تحت الجلباب ، ترفعه عن الساقين الصغيرتين والفخذين ، والاشياء تختلط في شيء واحد ، في عصا واحدة غليظة في يد البائع ، يضرب ، ويضرب على رأسها ، وصدرها ، وبين فخذيهما ، وهي تصرخ ، لكن صوتهما لا يخرج ، وتبكي وحدها بالليل بنشيج مكتوم ، وتبتلع دموعها كلها قبل الفجر ، وفي الصباح الباكر تبصقها كلها في دورة المياه ، قبل أن يصحو أحد ، وتشد قامتها ، وتنظر في المرأة الى عينيها المغسولتين المرفوعتين في تساؤل •

تساؤل لا أحد يجيب عليه ، رغم ظهرها المحني بعض الشيء ، وأصابعها المتورمة المتقيحة ، وكعبيها المشقوقين ، وقدميها الحافيتين تصعدان سلم الخدم ، وسلم الخدم حلزوني وملتو متعرج ، وعند كل ثنية شق مظلم يتسع لجريمة سرية ، وصفيحة قمامة فاقت بها القمامة وملأت الارض بذباب وصراصير صغيرة تزحف من تحت عقب الباب الى الشقق الانيقة الفاخرة •

من يرى حميدة وهي صاعدة السلم أو هابطة لا يرى عليها سمات الخدم • ما هي سمات الخدم ؟ عيناها

مغسولتان مرفوعتان الى أعلى • بعد العينين لا شيء يهم •
 وكل شيء يسكن ان يكون متقرا مغلقا على الصديد، وقدمها
 تغوصان حتى الركبتين في القمامة ، قمامة عضوية لان
 أصحابها من أكلة اللحوم ، ورائحة اللحم الميت أشد فسادا
 من النبات الميت ، ومع ذلك تدوس حميدة بقدميها على
 الرائحة وترفع عينيها للسماء ، وتذكر ما لا يدركه أحد •

ذلك ان قمامة الانسان تزداد بازدياد مكاته في
 المجتمع • فالمعدة التي تأكل بفتحها العلوية أكثر من غيرها تخرج
 من فتحها السفلية بطبيعة الحال أكثر من غيرها • ومعدة
 سيدها بغير جدال أكبر معدة ، وقمامته بالطبيعة أضخم
 قمامة ، يضعها الخدم في صفايح ، تحملها عربات مصفحة ،
 وتجمع على شكل هرم عال في مكان بعيد في الصحراء ،
 يتفرج عليه السياح بانبهار •

اهرامات صغيرة من القمامة في ركن كل شارع ، يفد
 اليها من حين الى حين جردان، وكلاب ضالة، وقطط صغيرة
 عيونها مستديرة لامعة مرفوعة الى أعلى كعيون الاطفال
 وأصابعها متقيحة كأصابع حميدة ، تفتش بسرعة عن قطعة
 خبز ، وشيء من غموس لم يتعفن بعد •

وخرجت اصابعها من صفيحة القمامة تلتف حول شيء، فتحت يدها لتراه ، لكن ضوءا مفاجئا سقط فوق كفها • اختفت بسرعة وراء الجدار • لكن الضوء تبعها ، وظلّ طويل ارتسم فوق الارض ، رأسه حليق اصلع، وكفاه عريضتان، فوق كل كتف صفّ اققي من خمسة ازرار صفراء تلمع • عرفته على الفور فشبهت بصوت عال ، وفتحت عينيها على صوت سيدها الخشن : حميدة • وراّت الشاة تدخل من الباب يسوقها الجزار • ادركت ان اليوم عيد لذكرى وفاة سيدتها •

التقت عيناها بعيني الشاة • توقفت الشاة • تسمّرت قوائمها الاربع في الارض • ظلت عينا حميدة تحمقان في الدائرتين السوداوين ومن حولهما البياض الصافي ، تكسوه لمعة مفاجئة، تتحرك فوق سطح العينين ، تترقق ، كدمعة كبيرة ثابتة لا تتبخر ولا تسقط • اتسعت عيناها بالدهشة • تلك الدهشة التي تحدث لانسان يرفع رأسه فجأة فيرى عينيه في مرآة لم تكن موجودة •

شدّ الجزار الشاة من حبل قصير يلتف حول عنقها • تبعته الشاة • لكن عنقها ظلّ ملويا الى الخلف ،

ناحية حميدة • التفت اصابع الجزار الكبيرة الغليظة حول
العنق ، رفته الشاة بيديها وقدميها الصغيرتين •
امتدت نحوها اربع ايااد قوية، شدت ذراعيها وساقيها
بعيدا ، واصبحت الشاة ممدودة فوق ظهرها ، وعيناها
السوداوان الواسعتان مفتوحتان بالذعر ، تبحثان في العيون
حولها عن عيني امها • كانت امها تقف على مسافة غير
بعيدة ، عيناها هادئتان ، ثابتتان ، ورموشها ثابتة ،
والطرحة السوداء فوق رأسها وكتفيها وصدرها
ثابتة لا تتحرك •

ارتعشت عضلة طويلة نحيلة تمتد بامتداد الفخذ
النحيل الصغير • امتدت الرعشة حتى اعلى الفخذ ،
حتى الزاوية المنفرجة ، كفم طفل مفتوح يلهث • شفاه
ناعمتان ورديتان يشف من تحتها لون الدم الاحمر ،
نديتان بلعاب شفّاف كدموع الاطفال ، واللسان الدقيق
بدأ يرتعش ، كرعشة لسان عصفور يذبج •

رفعت عينيها السوداوين المذعورتين مرة اخرى
تبحثان في العيون المتزاحمة حولها عن عيني امها •
نظرت اليها بعينين غريبتين فيهما نظرة باردة كنصل

السكين • حولت عينيها الى السقف بعيدا عن النصل،
لكن السكين كان يقترب منها رويدا رويدا، وبحركة
سريعة خاطفة كالبرق شطرها نصفين •

لم تشعر حميدة بالالم • عيناها ظلتا جافتين لم
تسقط منهما دمة واحدة • وتركت جسدها راقدًا على
الارض التراب ، ومن تحت فخذيهما شريط طويل من
الدم ، احمر قاتم ، يلمع في الشمس ، زحف اليه النمل
وتكاثف فوق ظهره المتجمد المقوس كظهر ثعبان ميت •
نفخت النمل فدخل التراب في انفها • عطست فاندفع من
فمها قطعة دموع متجمدة في حلقها • مدت يدها الى
التراب وردمت النمل • اندفن الدم واصبحت بقعة
الارض مرتفعة بعض الشيء كالقبر • داست ببطن قدمها
على الجزء البارز من المدفن • لم تعد الارض مستوية كما
كانت • داست فوقها بقدميها الاثنتين، وبكل قوتها المستعادة
مشت فوقها • وعند ثنية الجدار اطلت برأسها ونظرت
خلفها • وحينما لم تجد احدا رفعت جلبابها عن
ساقها ونظرت • لم يكن هناك العضو المألوف وانما
شق صغير كالجرح القديم المسدود •

وصل اذنيها الصوت الخشن المألوف : « حميدة »،

فأسدلت بسرعة ثوبها فوق ساقها • ورفعت الجردل
المملوء بالماء وسكبته فوق الشاة ، غسلت عنقها من الدم
المتجمد ، وادخلت خراطيم الماء في بلعومها المقطوع
فاندفع الماء من فمها وانفها كالنافورة • ضحك
الاطفال السبعة في سعادة ، فاليوم هو العيد ، والشاة
قد ذبحت ، والاولائي والصحون فوق المائدة أعدت •

وحلّ موعد الغداء ، وجلس الجميع يأكلون فيما
عدا الام ، التي كانت قد ماتت في حجرة النوم ، وحميدة
التي كانت لا تزال بجوار الجردل ، تسكب الماء على
الجسد الميت ، وتملأ كفها الصغيرة بالشامبوه ، وتدلّك
الشعر الغزير ، وتدخل اصبعها الصغير في الاذن الكبيرة
وتغسلها ، والعين المغمضة ترفع عنها الجفن المسدل
وفتحة الانف ، والفم ، والعنق ، والشعر الاسود تحت
الابطين ، واسفل البطن •

غسلت الفخذين بعناية ، من تحت ومن فوق ، ومن
الوسط • اتسعت عيناها بالدهشة • كان الوسط املس
بعير عضو ، مسدودا يعلوه شق طويل كالجرح القديم •
هبطت اصابعها المرتجفة الى الساقين ، ودست

الليفة بين الاصابع المتصقة وغسلت الحوافر • كانت
بقايا طين لا تزال عالقة بالحوافر • طين اسود
تتخلله خطوط صفراء ككش التبن الذي يفرش به الزرائب •

سمعت من خارج الباب الصوت الخشن الأمر :

— لا تضيعي الوقت في الحوافر ، سنعطيك صدقة
للجزار •

شدت من فوق رف الكتب جريدة الصباح ولفت بها
الحوافر • فوق الصفحة الاولى لمحت صورة مليئة بالوجوه
المستديرة ، المكتظة باللحم • تعرفت في الوسط عن وجه
سيدها • كانوا يجلسون على شكل دائرة • الصحون امامهم
ممتلئة مرتفعة كأهرامات مديية، وسكاكين لامعة، تتهاوى
في انتظام فوق الاهرامات • وتناقصت الاهرامات
بسرعة كبيرة حتى اختفت ولم يبق في الصحون الا
فتات •

ظنت ان الاهرامات تلاشت • لكنها دقت النظر في
الجريدة فوجدت الاهرامات كما كانت مرتفعة وعالية
ومديية • ولكنها اصبحت في مكان آخر من الصورة ،
في موقع ~~المقاعد~~ المائدة والمقاعد ترتفع من اسفل فوق

الفخذين وتعلو حتى المثلث المنفرج في نهاية الضلوع ،
تحت القلب مباشرة •

وانزلت اصابع حميدة فوق القلب الاملس • ارتجفت
يدها وهي تقطع الشريان العلوي وتشطر القلب بالسكين
لتغسله من الداخل • كثيرا ما فعلت ذلك بقلوب الدجاج
والارانب والاوز - ولكن قلب الشاة كبير الحجم ، لا
يزال ساخنا، وعضلاته لا تزال تنبض بدبذبة مرتعشة خفية،
تسري في اصابعها الصغيرة ، وتنتقل الرعشة الى ذراعها
وصدرها وقلبها الذي اصبح يدق بسرعة اكثر •

سقطت من جوف القلب المشطور جلطة دم حمراء ،
انزلت فوق رخام الحوض، وسقطت فوق قدمها الصغيرة •
اثنت ومدت يدها لترفع الجلطة عن قدمها ، لكن
عينها ارتطمتا ببطن ساقها الطويلة النحيلة ، يجري
فوقها شريط طويل رفيع احمر • ظنت انه شريان تحت
الجلد لكنه كان يتحرك هابطا فوق البشرة • لمستنه
بطرف اصبعها ، ثم قربته من عينها • كان الاصبع
مبللا بدم حقيقي •

رفعت جذعها الى فوق • فالتقت عيناها المذعورتان

بعيني امها • عيتان خاليتان من الفزع ، باردتان كبركة ماء
 آسنة ، صامتان كالقبر ، ثابتان كعيني انسان ميت •
 اسدلت الجفنين فوق العينين الميتتين واسدلت الغطاء فوق
 الرأس والجسد • سمعت صوت امها الخافت من بعيد
 كأنها يأتي من تحت الارض : « بلغت يا حميدة » •
 وناولتها سروالا من الدمور الاسمر ، لبسته حميدة تحت
 الجلباب مرة ولآخر مرة ، فلم يحدث ان خلعت يديها ،
 وانما هما يدان اخريان ، اصابعهما غليظة مفلطحة ،
 ورائحتهما غريبة يفوح منها التبغ • التبغ تعرف رائحته
 حميدة • كانت تشتريه من الدكان لابيها او اخيها او
 خالها او عمها او اي رجل آخر من الاسرة • وحينما
 تقربه من انفها تعطس وتسعل •

وحين تسعل ينتفخ شذاها كشدقي ايها ، وتقلد
 صوته الخشن ، وتقف في صحن الدار كما يقف ،
 وتلقي برأسها الى الوراء في خيلاء كما يفعل ، نافخة
 شدقيها ، واضعة يدها اليمنى في خصرها •

من يراها في تلك اللحظة كان يظن انها حميدو •
 هي نفسها كانت تظن انها حميدو • وتدب على
 الارض بقدمين قويتين وتشمّر جلبابها عن ساقها

الرفيعتين الصلبتين ، وتجري نحو الصبيان صائحة انسا
حميدو • ويلعبون عسكر وحرامية ، او لعبة القطار ، يمسك
كل واحد منهم بذيل الآخر ، وينطلقون يدبون على
الارض ويصفرون •

وترتفع الصفارة في الليل • ويرتج جسد حميدة
الصغير وهي واقفة قرب القطار • وتكثف الظلمة من
خلفها على شكل يد كبيرة تندفع بقوة في ظهرها
وتدفعها الى الامام • وتجري حميدة في الظلام ، لكن
الظلمة تنشق بعد لحظة عن عشر عيون صفراء تلمع
كالازرار النحاسية ، ونصل ابيض حاد يتدلى في الخفاء
بجذء الساقين الطويلتين • وتلف طرحتها السوداء حول
رأسها وكتفيها وصدرها وبطنها ، وتنزل في سواد
الليل كقطعة من سواد الليل • لكن الساقين ينصلهما
الحاد تجريان خلفها ، والقدمين الكبيرتين تدبآن
وراءها ، ديبا له رنين كاصطكاك الحديد بالحديد •



حميدو كان لا يزال في الخدمة. في كعب حذائه
قطعة من الحديد تدق على الاسفلت في بطة وثقل كحافر

بغل مصاب بضربة شمس • الشمس كانت حارقة ، فالمدينة هي القاهرة والوقت هو الظهيرة والشهر اغسطس • ورأس حميدو املس حليق بغير شعرة واحدة • القرص الملتهب الاحمر يلتصق بجلدة الرأس ، وعيناه ثقبان تنفذ منهما النار المتجمعة داخل الجمجمة ، وانفه ايضا له ثقبان يقذفان اللهب واذناه بالمثل ، وفتحة الفم ، وفتحة الشرج ، كل فتحات جسمه تغرز النار الحمراء قطعا متجمدة صغيرة وساخنة كالدم المتجلط •

حملق في القرص الاحمر الدائري • رآه قرصين اثنين احمرين ، داخل كل قرص دائرة سوداء كالنبي تلمع ، وحول النبي دائرة بيضاء صافية كعيون الاطفال • حملق في العينين وتعرف على اللعة • صاح : « حميدة » ، وشد الآلة الصلبة من جوار فخذه الى فوق ، وصوبها في النقطة المحددة بالضبط ، ففي منتصف المسافة بين العينين • وسمع صوت ابيه الخشن : « اضغط » • وضغط على الزناد •

سقط الجسد متضرجا بالدماء ، والعينان مفتوحتان ثابتتان مرفوعتان الى السماء ، والسماء مكتظة بالآلهة وقد جلس كل منهم واضعا ساقا فوق ساق ، والساق

العلوية متدلّية من بين السحب (وبذلك تكون مرئية بالعين المجردة) تهتز بحركة افقية منظمة كبندول الساعة • والشمس كانت قد غابت والليل هبط فعزفت الموسيقى النشيد الوطني احتفالاً بالنصر ، وارتفعت الاكف بالتصفيق حاملة الجسد الميت الى فوق • لامس انف الميت بطن قدم احد الآلهة وشم الرائحة المألوفة التي تنبعث من الاقدام التي لا يغسلها اصحابها • اشاح الميت بانفه بعيداً عن الآلة ، فارتفع الهتاف وانشق الجراب الاسود عن وسام الاستشهاد في ميدان الشرف •

مد الميت يده الملوثة ببقع سوداء (بسبب جفاف الدم) ليتسلم الوسام • امتدت بسرعة يد اخرى نظيفة واظافرها مشدبة واخذت الوسام • لوح الميت يده في الهواء في غضب فامتلات الظلمة بكشافات الضوء الاصفر مستديرة وجاحظة كالازرار النحاسية •

وانفجرت شفتا حميدو في اندهاش ، وسقط جسده الميت بين السيقان الطويلة يتدلى من بينها آلات القتل الصلبة ، وانقرمت قدمه الحافية تحت الاحذية السمكية ذات الرقبة • واصبحت الارض كالعجين غاصت بها قدمه

الثانية ، وساقاه غاصتا الى الركبتين ، ثم الى منتصف
 فخذه ، حتى اعلى الفخذين ، الى منتصف بطنه .
 بالتدريج كان يغوص الى منتصف صدره . والتفت
 قبضة الارض حول عنقه ، فأرخی رأسه فوق الارض ،
 ووجدها دافئة حانية كصدر امه ، فدفن وجهه بين ثدييها
 واستطاع ان يضع انفه تحت الثدي الايسر . المكان الامين
 القديم المفضل لديه . لكن امه ابعدهت ييدها القوية
 كيد ابيه . ورفع رأسه الى فوق فرأى يد ابيه الكبيرة
 باصابعها الطويلة تلفت حول الوسام ، وعيناه الواسعتان
 السوداوان ذات الشعيرات الدموية تحمقان في عينيه . مد
 حميدو يده ، لكن يده رغم الزحام ظلت ممدودة في الهواء .
 حملت العيون في اصابعه الملوثة بالدم ولم يضافحه
 أحد . (كان الناس في ذلك الوقت يحتقرون المقتول
 ويحترمون القاتل) . وحميدو لم يكن قاتلا . هو الذي
 حدد النقطة في منتصف المسافة بين العينين وهو الذي
 ضغط على الزناد وهو الذي قتل . لكنه قتل بغير
 ان يصبح قاتلا . فالقاتل هو صاحب العار الذي لم يلوث
 بديه .

لكن العار لم يكن عار حميدو ، وكان عليه ان
 يغسله فحسب (توزيع الاختصاصات كان احدي سمات

التقدم ، فالبعض يقوم بالعار والبعض يقوم بعملية
 (الغسل) • يسكب الماء من الجردل ويغسل كل شيء
 بعناية ، الشعر والرأس والاذرع والارجل ، وثنيات الجلد
 تحت الحوافر • ويسمع الصوت الأمر من الداخل يقول :
 « خذ الحوافر فهي نصيبك » • وتستقر الحوافر داخل
 جريدة من الجرائد اليومية ، وتدخل التاريخ باسم الزكاة ،
 يحملها حميدو تحت ابطه ، ويسير في الشارع مزهوا
 بها ، ومن حين الى حين ينظر تحت ابطه ، ويرى الشعر
 الاسود الغزير ينشق عن وجه ابيض بغير دم ، والعينان
 الميتتان واسعتان مرفوعتان الى السماء •

وباستطلاع غريزي حملقت عينا حميدو في السماء ،
 ورأى النجم الوحيد المحترق ، ذيله الطويل الرفيع يشبه
 لامعا فوق السواد كخط من الدم الطازج الذي لم يتجمد
 بعد • ثم هبت نسمة جففت الدم ، واصبح النجم لونه
 اسود ، والسماء كتلة واحدة مصمتة بغير مسام على
 الاطلاق •

وهبط رأس حميدو فوق صدره ، فهبط من عينيه
 خيط طويل ساخن وانزلق من زاوية فمه يجري تحت
 لسانه بطعمه الملحي المألوف كماء المخل •

ضغط فكه العلوي فوق السفلى وابتلع العلقم • لا
 مهرب له من الكراهية • انها تغزوه من جميع منافذ
 جسده ، وتدخل اليه بطعمها المالح المر من شقوق جلده
 وفتحات جسمه ، وتتكوم في جوفه يوما بعد يوم ، وسنة
 بعد سنة ، ويصبح جوفه كقاع زلعة المش ، فيملأ فمه
 بالدخان الاسود ، ويطرد الهواء من صدره ، وابتلع
 الدخان وحده •

عرفت حبيدة رائحة الدخان • التبغ كانت تشتريه من
 الدكان • لكن الرائحة هذه المرة مختلفة ، ممتزجة برائحة
 اخرى لا تعرفها • كرائحة دورة المياه بعد ان يحلق
 سيدها ذقنه • تناوله المنشفة باصابعها الصغيرة ، وترى
 عينيه في المرأة ، واسعتين تشعان من البياض ومن
 السواد ضوءا نحاسيا اصفر •

ويستقر الضوء عليها ، رغم انها تخبىء وراء باب
 المطبخ • جسدها الصغير منكش تحت جلبابها المبلل ،
 وكتفها غير مستويتين • الكتف اليسرى اعلى من الكتف
 اليمنى ، وجذعها يميل ناحية اليمين ، بسبب سلة
 الخضار الثقيلة ، تشد ذراعها اليمنى الى أسفل ، وقدمها

اليسرى تلمس الاسفلت الملتهب باطراف الاصابع ،والقدم
اليمنى تلمسه بمؤخرة كعبها الحافي * من يراها يظن انها
عرجاء * لكن حميدة لم تكن عرجاء * كانت جائعة
فحسب * فمدت يدها في السلة وتسلفت اصابعها
الصغيرة الرفيعة تحت الخضار حتى احست ملمس اللحم
الطري * شدت قطعة ودستها بين اسنانها قبل ان
يراهـا أحد *

اسنان حميدة صغيرة بيضاء لكنها حادة ، تقطع
اللحم النـيء وتهرس العظم * اسنان بدائية نبتت فوق
فكيها منذ قرون ، قبل ان تـخترع الشوك والسكاكين
وغيرها من الاجهزة الحديثة (بسبب هذه الاجهزة فقدت
اسنان سيدها قوتها واصيبت لثته بمرض البيوريا) *
وعيناها ايضا بدائيتان قويتان ، تريان الاشياء من على
بعد ، واذناها قادرتان على التقاط اي صوت مهما بعد *
(اذنا سيدها فقدتا ايضا هذه القدرة بسبب اكتشاف
المخبرات للاجهزة السمعية الحديثة) *

وسمعت حميدة صوتا، فرفعت عينيها الى فوق * ورأت
رأس سيدها يطل من النافذة المزركشة في العمارة

العالية • وبسبب الارتفاع الشاق كان رأس سيدتها بحجم رأس الدبوس • لكن حميدة رأته بوضوح، ولمحت العضلة السمينة المكتظة باللحم تنقلص تحت فتحتي الانف الواسعتين نبت فيهما ومن حولهما الشعر • أدركت من اهتزاز الشعر ان سيدتها شمت رائحة اللحم المهروس تحت ضروسها • أنكرت بطبيعة الحال ، لكن قطعة لحم صغيرة كانت لسوء حظها قد انحشرت بين ضرسين ، شديتها من بينهما اصابع سيدتها البضة بالملقاط ، ووضعتها فوق كفها تحت اشعة الشمس وارتدت نظارتها الطبية وفحصتها •

لم تضربها سيدتها هذا اليوم • حدثت مشادة بين سيدها وسيدتها بعد الغداء الدسم ، انتهت بالاتفاق على مبدأ مساواة المرأة بالرجل في الاشراف على الخدم ، واصبح على سيدها ان يقوم بعملية الضرب هذه المرة •

رقدت حميدة على ارض المطبخ • سمعت وقع القدمين الكبيرتين • اغمضت عينيها وانتظرت • احست الاصابع الطويلة ذات الاظافر المشدبة ترفع عنها الجلباب المبلل • تعرّت ساقاها الصغيرتان وفخذها وردفاها حتى

منتصف الظهر والبطن • حملت العينان الصفاوان في
البطن لامعتين بضوء نحاسي • سقط الضوء الاصفر على
البطن • بطن مشدود ، عضلاته تنقبض بقوة ، يهبط
الى فخذين بدائيتين ، قادرتين على الحركة في اي اتجاه ،
وبكل قوة تقاومان وترفسان • واندفعت قدمها الصغيرة
في بطنه العالي المتراهل ذي الشيات الطولية • امسك
قدمها في يده الكبيرة • وادرك لاول مرة شكل قدم
المرأة • فالقدم لها اصابع ، خمسة اصابع يفصل كل اصبع
عن الآخر • قدم سيدتها لم يكن لها اصابع ، اذ ان
اصابعها التصقت بعضها ببعض في كتلة لحمية طريفة
كخف الجمل •

وزحفت يداه فوق الساقين • واحس حركة العضلات
القوية تحت كفه ، تنقبض وتنبسط • عضلات سيدتها
لم تكن لها حركة • خامدة ، ساكنة ، تغوص فيها اصابعه
بغير مقاومة كما تغوص في كيس من القطن (كان
ذلك طبيعيا بسبب موت سيدتها السابق في حجرة النوم) •

بهزته حركة اللحم الحي ، كخنزير يخرج فجأة من
خرابة عاش فيها سنوات على الرمم واطراف الجثث •
اتنفض بالنشوة فسقطت عنه ملابسه ، ولامس جسده

الساخن البلاط البارد المبلل بماء المسح ، تقلصت عضلاته
المرتخية المترهلة وسرى في عموده الفقري تيار كهربى •
دبت الحياة في حواسه الخمس وبدأ انفه المرتعش بفتحيه
الواسعتين يختلس من تحت الحوض رائحة القمامة • جذب
بكل قوته شهيقا عميقا وملأ صدره بالرائحة النتنة • سرت
الرائحة في جسده وسرت معها ذكرى قديمة منذ الطفولة
لاول لذة جنسية •

لكن حميدة منكمشة في الركن ، ملتصقة بالجدار ،
تسري فوق جسدها رعشة ، وذكرى قديمة لاول ضربة ،
وعيناها السوداوان المتسعتان بالذعر ، ثابتتان فوق العصا
الغليظة من الخيزران • كانت العصا مخفية تحت ملابسه
او وراء ظهره ، ثم في لحظة خاطفة شدها ورفعها في
وجهها منتصبه صلبة • وبسرعة تفوق سرعة الضوء صوبها
على النقطة المحددة في منتصف المسافة بين عينيها •
وضغط على الزناد •

صرخت حميدة • دوت صرختها في الليل المظلم
الساكن كصوت الطلقة • تقلبت سيدتها في كفها الحريري
من جنب الى جنب • هبّ بعض الناس (بسبب نومهم
الخفيف فحسب) واضيئت الانوار ، وانفتحت النوافذ

المغلقة والابواب المغلقة ، واشراأت الاعناق وامتدّت •

لكنها لم تصل الى شيء • المطبخ له اربعة جدران
وسقف وباب • والباب له قفل حديدي وسلسلة حديدية •
وكل شيء عاد الى ما كان عليه • اطفئت الانوار ،
وانغلت النوافذ والابواب • كل الاشياء انغلت • وعم
السكون ، وتجمعت الظلمة فوق بلاط المطبخ ، وتكثف
في الركن وراء الباب على شكل جسد صغير عار ، يجري
من تحته خيط طويل رفيع من الدم ، وعينان واسعتان
دامعتان تبرقان في الظلمة كعيني طفل •



اللعة عرفها حميدو من على بعد ، منذ كان طفلاً ،
تجذبه نحوها كضوء النجم • نجم وحيد ساهر في سماء
سوداء مصمتة بغير مسام ، وحميدو يسير وحده في الظلام
بكعبه فوق الاسفلت ، عيناه مرفوعتان نحو النجم ،
ويداه فوق صدره ملوئتان بدم قديم اسود ، وتحت الاظافر
سواد كالطين ، ومن حول الاصابع بقع بنية قاتمة بلون
التبغ • يمزق سعاله الليل ، ويشق الظلمة بصاقه الابيض
ويستقر على الاسفلت بجوار قدميه ، مكورا كقطعة من
اللحم الابيض تتخللها شعيرات رفيعة من الدم •

اقتنوا اثره المدمم فوق الطريق وامسكوه واعادوه الى
 الخدمة • رفع الطبيب باطراف اصابعه النظيفة ذات الاظافر
 المشذبة سرواله الدمور • فاحت رائحة الجسد الميت ،
 فأشاح الطبيب بوجهه بعيدا عنه ، وكتب بقلمه الباركر
 التشخيص : « لا يصلح الا للخدمة بالبيوت » • واصبح
 حميدو مراسلا (اللقب القديم لخادم البيت) •

واخذوا منه العهدة : الحذاء الجلدي بالرقبة والكعب
 الجديد ، البدلة والكتفين المحشوتين بالقطن والقش ،
 والازرار النحاسية الصفراء ، خمسة ازرار فوق كل كتف ،
 وعشرة فوق الصدر ، والحزام الجلدي العريض ويتدلى
 منه الجراب يخفي النصل الحاد كالسكين •

تحسس حميدو جسده في الظلام • وجد الجلباب
 الواسع القديم ، يتدلى فوق فخذه كجلاليب النساء ،
 وكتفاه نحيلتان وغير افقيتين ، ككفي ميزان غير معدول ،
 الكف اليمنى هابطة الى اسفل تشد معها الذراع
 والكتف ونصف الرأس الايمن • والسبب معروف •
 (خدم البيوت كانوا يحملون سلة الخضار باليد اليمنى) •
 ولان السلة كانت دائما ثقيلة ، مملوءة حتى الحافة
 بالبطاطس والطماطم والخرشوف ، وفي القاع يرقد الجسد

المذبوح ، والدم الساخن الاحمر ينشع من الورق الابيض
المصقول ، والقلب لا زال يرجف بحركة غير مرئية ،
والعينان السوداوان الميتتان مفتوحتان مرفوعتان الى اعلى ،
دامعتان ، تلمعان في الظلمة كعيني طفل .

حملق حميدو في عيني الطفل في دهشة . لم تكن لهما
لمعة عيون الاطفال . كانت لمتهمنا نحاسية كعيون الكبار .
ركب الطفل فوق ظهره ، الركبتان فوق العنق ، والفخذان
حول الظهر وكل ساق على كل جانب ، وكعب الحذاء بجذاء
البطن .

هزّ الطفل ساقيه كما يفعل الاطفال حين يركبون
الحمير ، سار به حميدو على يديه وركبتيه ، والطفل من
فوقه يهتز في سعادة ، وفي يده عصا رفيعة من الخيزران .
الشمس كانت في منتصف المسافة بين العينين ، والشارع
اسفلت احمر ملتهب ، والحصى احمر ملتهب . حصاة حمراء
دخلت في الركبة اليمنى فتوقف حميدو ليسعل وعجزت
عضلات صدره عن ان تنقبض وتطرد الحصاة .

تدلّى رأسه فوق صدره كراس الحمار المريضة ،
فاندفع الجذاء في بطنه مدببا كالسكين . صرخ . لكن
عضلات بطنه عجزت عن ان تنقبض وتطرد الصرخة . لفّ

يديه حول بطنه ليحميه من الحذاء فانقض عليه الطفل وعضته
في بطن ساقه •

دخلت الانياب في لحمه • وصلت العظم حتى النخاع •
ضغط فكه العلوي فوق السفلي وابتلع الالم • تكوّم
الاسم في النخاع مديبا صلبا كقطعة زلط • ضحك الطفل
في سعادة وضرب قطعة الزلط ببوز حذائه • طارت
الزلطة في الهواء ثم استقرت في البطن • البطن كان
ساخنا والصدر ساخن ، مملوء بالدم ، والرأس حليق بغير
شعرة واحدة تفصله عن قرص الشمس •

مشت النار في جسده • استسلم لها تماما وتركها
تغزوه من جميع منافذ جسده ، فاتخذ وضع الحماراة
المريضة وزحف على قدميه وركبته ودخلت الكراهية
بطعمها الحارق من مسام جلده وتراكت في القساع
متجمدة وحمراء كقطعة الفحم المتقدة • مدّ يده ليشد
آلة القتل • ارتطمت اصابعه بفخذه الميتين • العضلات
مرتخية متهدلة تحت الجلباب • اختفى وراء باب المطبخ
ورفع الجلباب • لم يجد الآلة الصلبة بحذاء الفخذ ،
وارتطمت عيناه بالشق المسدود الاسود كالجرح القديم ،
فسقط رأسه فوق صدره •

ورنّ الصوت الأمر ينادي • حميدة • خرجت حميدة
مطرقة من وراء باب المطبخ • جلبابها المبلل يلتصق بجسدها،
وعلى جدار بطنها علامة محفورة في الجلد ، على شكل
حذاء • وتحت الجدار تنمو الكراهية كالجنين ، تتكور
كالعجين، وتعلو يوما بعد يوم ، تنتفخ بالماء وتتخمّر
وتفوح الرائحة •

التقطت اجهزة الامن الرائحة • دائما هناك اجهزة للامن،
لها عيون ترقب ، وانوف تشمّ • كتبت حميدة انقاسها
ومسحت بطن يديها بكفيها قبل ان تمد يدها الصغيرة
من بعيد بكوب الماء • التفت اصابع سيدها ذات
الاذافر المشدبة حول الكوب البلوري • واشاح بوجهه
بعيدا عن الرائحة • لكن الرائحة نفاذة ، وصلت الى
انف سيدتها الميت في حجرة النوم ، فالتصبت شعيراته
المرتخية واصبحت صلبة مديبة كالدبايس •

أنكرت حميدة بطبيعة الحال ، لكن جسدها كان
الجريمة • اخذوا منها الجسد وتركوا لها الجريمة •
كالنحل يمسّ الزهرة ، يرشف الرحيق ، ثم يلتقي المصاصة
بعيدا بيد قوية • اندفعت اليد في ظهرها كاللكمة •
الطريق كان مظلمًا ، والليل اسود فحملت في الظلمة •

تعرفت على قبضة امها في ظهرها ، فرفعت عينيها الى
عينيها ، وكادت تناديهما • لكن امها كانت واقفة بغير
حراك • صدرها ثابت ، ورأسها ثابت ، وعيناها ثابتتان
ورموشها ثابتة •

سارت حميدة بجوار التمثال الحجري وتركته خلف
ظهرها • • دبّ الصمت في الليل وادركت انها وحيدة •
جلست على دكة حجرية بجوار النيل • ملأت صدرها
بهواء النيل • هواء راكد حزين • دخل الحزن صدرها
مع الظلمة، فادركت انها ولدت بغير ام ، وان جدتها
لايها كانت جارية في بلاط سيدها ، وانها ماتت
مقتولة بسكين ايها •

تركت جسدها فوق الدكة مرتخيا ، مفتوح المسام ،
يعزوه الحزن من جميع المنافذ • ملأها الحزن حتى الشمالة،
واعطاها قوة • والحزن لا يعطي دائما • انه نادرا ما
يعطي • يختص بعطائه نوعا نادرا من الناس ، قادرا
على مبادلته العطاء ، وحميدة قادرة على ان تعطي الحزن
نفسها كاملة • تتفرغ له وتعيش عليه • تأكله وتشربه
وتهضمه وتجري عصارته في دمهـا ، وتفرزه امعاؤها ،
وتفرزه مسام جسدها ، ويسيل فوق جلدها كخيوط

رقاقة ، تلعقها بلسانها وانفها وتبتلعه مرة اخرى في جوفها ، وتهضمه ثم تعود تفرزه •

من يراها واقفة منتصبة في الليل وحدها يظن انها تمثال رمسيس • ذيل الماء يمشي فوق خديه وعنقه وكتفيه وفخذه وقدميه • يمشي بهوادة ، دون ان يشعر بحركته ، ويظل هناك فوق الجلد ، ورغم نسمة الليل الجافة لا يتبخر، بل يدخل مسام الجلد ، ويعود من حيث اتى الى منبعه الاصلي في رحم الام •

الحزن هو ولا شيء غيره • الجنين الابدي في رحمها تعيش له ويعيش لها • يدخل او يخرج حيثما تشاء له ان يدخل او يخرج • وحينما تريد له الخروج يصبح طفلها • طفل طبيعي ليس كالاطفال الصناعيين الذين يولدون بشهادة مكتوبة بالحبر ويجري الحبر الاسود حيث الدم الاحمر ، واعضاؤهم التناسلية تبتز والشعر يثجت من فوق الرأس ، وبحذاء كل فخذ لعبة اطفال على شكل مسدس •

طفلها لم يعرف اللعب بالمسدسات او العرائس او اي لعب اخرى ، فاللعب للاطفال وهو ليس طفلا • يولد واقفا على قدميه ، ويجري بين اكوام السباخ ويضحك وحده •

هذه الضحكة هي التي تميّزه عن الاطفال • فهي ضحكة
بغير صوت ، بغير حركة في عضلات الوجه ، لكن عينيه
الصغيرتين تكسوهما دمعة كاللمعة ، تشعّ من تحتها
نقطة ضوء ، كنجم وحيد ساهر في سماء بغير قمر •

سارت حميدة في الليل تبحث عن طفلها • دارت
حول اكوام السباح • نظرت خلف صفائح القمامة • رأت
بحوار الجدار جسدا صغيرا متكورا حول نفسه • عرفته
على الفور • مدّت ذراعيها في الظلام لتحوطه بصدرها •
شقّ الظلمة ضوء اصفر وظهرت العين النحاسية •
دائما هناك عين مستديرة ترقب بغير جفن كعين الثعبان ،
والذيل طويل ناعم • لم تخذعها النعومة ونظرت خلف
الذيل • رأت آلة القتل مخفية تتدلى بحذاء الفخذ •
لم يكن ثعبانا • كان حية اثني • لكن حميدة كانت
تدرك ان اي شيء يقتل لا بد ان يكون مذكرا ، فصرخت
لطفلها : « احترس منه ، سيقتلك ! » •

دخلت الانياب في بطن الساق الصغيرة الرفيعة •
سال الدم كذيل طويل رفيع • بلل اصابعها الصغيرة ،
وهبط الى بطن قدمها • رفعت رأسها الى فوق ، ورأت
عيني امها الواسعتين السوداوين ثابتتين في عينيها ،

تنظران اليها في صمت، والطرحة السوداء تغطي رأسها وصدرها وبطنها • فتحت فمها لتسأل ، لكن الكف الكبيرة أصبحت فوق فمها ، والانفاس والهواء وحفيف الشجر كلها أصبحت بغير صوت ، تجمدت في كتلة سوداء صماء بغير مسام ، والطرحة السوداء ذابت في الليل كما تذوب قطرة الماء في البحر ••

لكن السائقين تدبان من خلفها ، طويلتين شاهقتين كال موجة العالية ، تتبعها في الخضم ، ترصد مكانها ، تغوص معها الى القاع ، وتطفو كالجثث فوق السطح، وتتوه معها في وسط البحر ، ثم تعود تظهر عند الشط ، وترتطم معها فوق حافة الصخر ، وتضيع في الزبد الابيض ، تتأرجح معها بين المدّ والجزر •

المدّ كان ضعيفا والجزر أضعف • فالبحر لم يكن بحرا ، وانما نهر النيل ومياهه راكدة في القاع ، حركتها بطيئة ، ثقيلة ، كقدم نصف مشلولة ، تدوس فوق الارض وتثبت ولا ترتفع مرة اخرى لكن حميدو يشدها بكل قوته ، بكل عضلات الساق الرفيعة المعوجة ، وترتفع القدم فوق الارض وتثبت ، ولا تهبط مرة اخرى، لكن الارض تشدها بكل قوتها فتسقط فوقها ثقيلة كقدم من حجر •

الصباح كان مبكرا والشمس لا تزال مائلة ، فارتسم
ظله فوق الارض • طويل ورفيع معوج • كقوس قزح •
الرأس حليق ، والكتفان غير مستويتين ، كتف اعلى من
كتف ، وساق اطول من ساق ، كالأعرج ، والاطفال من
خلفه يضحكون ، ويركبون فوق ظهره •

اصوات الاطفال وصراخهم يترامى اليه من فوق
رأسه ، واقدامهم تدبّ فوق ظهره كمجالات القطار ، كل
واحد يمسك بذيل الآخر ، ويصفرون ، وترتفع الصفارة في
الجو فيجري كل منهم ليختفي من « المسافة » وراء كوم
سباخ او في الزريبة او خلف عمود النور •

عمود النور كان طويلا ممتدا في السماء ورأسه يلتصق
بالقمر • القمر كان نوره ابيض ، سقط على وجه حميدة
وهي مختفية وراء العمود ، فأصبح وجهها ابيض ، وذراعاها
بيضاوين ، وساقاها بيضاوين ، وجسدها ابيض املس
منزوع الشعر • لكن منابت الشعر ظلت بارزة في قشعريرة ،
سرت فوق جلدها •

امتدّت يدها البيضاء ولمست جلدها • جسدها
وحده هو الذي يطمئنّها • كل الاشياء الاخرى خارج
جسدها غير مطمئنة • اجسام غريبة تكمن في الاركان ،

ووراء الجدران وخلف الابواب ، وفي ثنيات الشوارع
المظلمة ، وفي زوايا كل شيء • الزوايا من الخارج تبدو
ملساء بريئة ، كأنها لا شيء داخلها ، ولكن حينما ينفرج
الضلعان وتتباعد الساقان تظهر آلة القتل بوضوح
صلبة ومنتصبة •

تصرخ حميدة • صرختها غريبة ، ليس لها صوت
الصرخة المألوف حين يصرخ الانسان فزعا او طلبا للاستغاثة •
فلم تكن حميدة تستغيث بأحد • كانت تعرف ان الطريق
خال ليس فيه احد ، والنوافذ مغلقة والابواب مغلقة
والانوار مطفأة والاصوات معدومة ، وكل شيء معدوم
كالصوت •

لم تكن صرخة استغاثة ، ولكنها حادة وطويلة
وممتدة ، كأنها ملايين الصرخات اتصلت والتحمت في
صرخة واحدة تمتد بامتداد الليل ، وتتلحم بملايين
الذرات السوداء التي تصنع الظلمة والصمت •

ولم تكن ايضا صرخة فزع او خوف • لم تكن
حميدة تخاف الظلمة او الصمت او حتى الموت • فهي جزء
من الظلمة ، وضوتها هو الصمت ، اما الموت فهو يعيش
معه • تحمله كالجسد الثاني على جسدها • كشخص

آخر ميت يعيش داخلها • يحتل الفراغ في جوفها ويفرد
ذراعيه وساقيه ويتمدد ، وتفوح رائحته من عينيها
واذنيها وانفها وفمها وجميع فتحات جسمها • وفي
الليل حين تشتد الظلمة وتشتد الوحدة تمتد يدها
فتحسه الى جوارها ، ملاصقا لها ، وفي حضنها انقاسه
تختلط بانفاسها وحرارته كحرارة جسمها •

وضعت حميدة يدها على ظهرها فشعرت بالامان •
جسدها ساخن ناعم امس الزوايا • من يراها من الخلف
يظن انها طفل • وحين تستدير ويرى عينيها يدرك انها
عجوز ووجوه العجائز كوجوه الاطفال ليس لها جنس •
وحين تهبط العين الى بطنها النامي بالجنين الحي يعرف
انها امرأة • ويختار المرء في تحديد عمرها ، فالحقيقة
ان حميدة ليس لها عمر • وهذا هو حال الاطفال الذين
يولدون رغم انف الموظف الحكومي الذي يحدد تاريخ
الولادة • وانهم يعيشون فوق مستوى الحكومة ، وفوق
مستوى التاريخ ، وفوق مستوى الزمان والمكان ، لا
ينتقلون كالبشر العاديين من مرحلة الطفولة الى الشباب
الى الشيخوخة ، ويعيشون رغم انف الموظف الحكومي
الذي يحرر تواريخ الوفاة • ينجون من الزمن كالالهة ،

• ويعيشون الى الابد ، حياة واحدة ممتدة بغير مراحل •

يولدون كبارا ثم يصبحون عجائز بغير مرحلة طفولة
او شباب • ثم يرتدون فجأة من الشيخوخة الى الطفولة
او من الطفولة الى الشباب • يرتدون في لحظة سريعة
خاطفة اسرع من قدرة العين على الرؤية ، فاذا بالعين
عاجزة عن اكتشاف حقيقتهم ، ويبدو الواحد منهم طفلا
وشابا وعجوزا في اللحظة نفسها والمكان نفسه •
واحيانا يسرون في الطرقات وهم موتى وتكاد تزكم
رائحتهم الانوف ، ومع ذلك تظل العين عاجزة عن التفرقة
بينهم وبين الاحياء •

التجاعيد في تلك الاحوال لا تهتم كثيرا ، لانها لا
تبدو للعين تجاعيد وانما تلك الخطوط الطبيعية التي
تظهر على وجه الطفل حين يضحك بشدة وبغير صوت
مسموع •

حميدة كانت لا تزال وراء عمود النور ، وجهها
متورم مستدير تحت الضوء ، ايض بلون الدقيق ، تخفي
تحت المسحوق التجاعيد ، وشفثاها المشققتان (بسبب
الجوع) تغطيها قشرة حمراء مدممة ، وصدرها بارز من
فتحة ثوب مقطوع ، وبطنها بارز ، وكعباها المشققان

بارزان من حذاء كالشيشب بغير كعب ، وشعرها غزير
اسود كقطعة من الليل يغطي بالسواد رأسها
وصدرها وكل جسدها ، ويطل من تحته عنقها الابيض
كجذع شجرة تخرج من غابة نبتت جذورها في ارض
رطبة .

من يراها يظن أنها امرأة ليل ، مع انها لم
تكن امرأة ولم يكن الوقت ليلا . كانت الشمس رأسية
في منتصف المسافة بين العينين ، وحميدة تحملق في
القرص الملتهب الاحمر ، لا يطرف لها جفن ، ولا تختلج
في وجهها عضلة . تنظر اليه بكل قدرتها على الصبر .
وتراه بوضوح في مركز الدائرة كالقوس ، طويل ورفيع
ومعوج ، يتحرك امام عينيها بحركته البطيئة ، كتف
اعلى من كتف ، وساق اطول من ساق ، كالأعرج . عرفته
على الفور وكادت تهتف حميدو . لكنها خشيت ان
يكشف مكانها وراء العمود ، ويتعرف على بطنها المنتفخ ،
ويشد آلة القتل .

أطبقت شفقتها وكنمت انفاسها . لكنه شم رائحتها
(رائحة حميدة قوية نفاذة كرائحة الموتى) فتوقف عن
المسير ، ومدّ يده الطويلة الرفيعة خلف عمود النور . لم

تمسك يده شيئا • ناداها بصوت مألوف غير مسموع
 مقلدا صوتها : « حميدة » ، وثني جذعه فالتوى نصفه
 الاعلى فوق الاسفل مقلدا شكل جسدها • كان التقليد
 مصنوعا باتقان شديد (بسبب تقدم الصناعة
 والتكنولوجيا) الى درجة ان حميدة اختلط عليها
 الامر ، وظنت ان الصوت صوتها ، والجسد جسدها ،
 فخرجت من وراء العمود مطمئنة ، وسارت كعادتها مطرقة
 رأسها ، وحينما رفعت رأسها الى فوق ارتطمت عيناها
 بالعينين الصفراوين ، فرأتهما من هول المفاجأة أربع
 عيون ، وتضاعف العدد في لحظة خاطفة ، وحوطتها
 العيون الصفراء ، عشرا فوق الصدر من الامام مستديرة
 ومتراصة في وضع رأسي ، وفوق كل كتف خمس في وضع
 افقي ، تشع كل عين ضوءا نحاسيا اصفر •

ورن الصوت المعدني فوق الاسفلت كاصطكاك الحديد
 بالحديد • ما اسمك ؟

قالت بصوت غير مسموع : حميدة •

مشت الموسيقى الحادة فوق جلدة رأسها وسقط شعرها
 الناعم الغزير في الجردل ، وهبطت الموسيقى الحادة الى
 جسدها ، ومشت فوق جلدها تجتث الشعر ، وحينما

وصلت الى اسفل البطن عثرت بين الشعر الاسود على البرعم الصغير الابيض، كالعصفور الوليد ، فاجتثته من جذوره ، وتركت مكانه جرحا عميقا في اللحم كالشق المسدود . (سميت هذه العملية الجراحية « بالطهارة » في ذلك الوقت وكان هدفها ان يصبح الانسان « طاهرا » بغير اعضاء جنسية) •

رقدت حميدة فوق الارض الاسمنت ، تحوطها اربعة جدران من الاسمنت ، وذراعاها وساقاها مشدودة مربوطة في حزمة واحدة، واحزام من المعدن الصلب ، يتدلى قفله الحديدي من بين فخذيها (دخل التاريخ باسم حزام العفة) ، وتصطك سلسلته بالارض الاسمنت كلما حركت ساقها او ذراعها •

جسدها الناعم الصغير من تحته بركة من الدم ، تدخل في شقوق الارض ، وفوق الجدران دم على شكل اصابع آدمية ، دم اسود قديم ، كالبقع ، ملاين البقع ، من كل عمر ومن كل جنس ، اطفال ورجال ونساء وعجائز بيض وسود وصفر وحمر ولكل واحد بقعة مميزة كبصمة اليد •

وضعت حميدة طرف اصبعها الصغير في الشق ، فخرج

مبللا بالدم ، مسخته في الجدار، وطبعت فوق الاسمنت
 بصمتها كالتختم * (الأميون جميعا امثال حميدة يختمون
 على الوثائق الرسمية بهذا الشكل) * وتمتد الاصابع
 السوداء الملوثة بالدم تطبع ختمها فوق الوثائق * ملايين
 الوثائق ومن فوقها ملايين الاختام ، اختام سوداء
 خطوطها متعرجة مشرشرة كارجل الصراصير، او الذباب
 او الجراد * كثيرون ومنتشرون فوق الارض ، بالليل
 وبالنهار ، فوق الكباري ، فوق السواري ، عند ثنية كل
 شارع ، وراء كل بيت ، خلف كل جدار ، داخل كل شق من
 شقوق الارض ، رؤوسهم العارية الحلقة تطل فوق السطح،
 واجسامهم النحيلة مقوسة داخل الشق وبطنهم مجوفة
 خالية من الاحشاء الداخلية ، بغير كبد وبغير قلب وبغير
 معدة ، وبغير مصارين والجوف الواسع الخاوي اصبح
 مخزنا سريا يعتنون فيه الكراهية (المكان الوحيد
 الذي لا تصل اليه اجهزة الامن في ذلك الوقت * تقدمت
 الاجهزة العسكرية حديثا واخترع في الطب جهاز للاشعة
 يكشف عن الاجسام الغريبة في جسم الانسان ، ومنظار
 الكتروني يوضع في فتحة الشرج ويكشف عن محتويات
 التجويف الداخلي) *

سقطت اشعة اكس فوق بطنها المنتفخ • ظهر التجويف مملوءا حتى الحافة بالكراهية ، طبقة فوق طبقة ، فوق طبقة ، ملايين الطبقات الرقيقة كرقائق من معدن شفاف ، تكونت بعضها فوق بعض في كتلة معدنية مصمتة وصلبة • تحصسها الطبيب باصابعه الناعمة المشدبة الاظافر ثم صرخ : بارود • فانهالت المعاول تشق الارض وقلبوا الشقوق رأسا على عقب ، وعثروا على خزائن البارود جميعا (اشاد التاريخ بالانتصار الذي حققته اشعة اكس في علاج الاورام السرطانية من الجسم) •

لكن السرطان مرض خبيث ، أخبث من التاريخ ، والورم ظل ينمو داخل بطن الارض ، وحينما تضع حميدة يدها تحتها تحسه ساخنا فوق كفها ، سخونة جسمها وتشعر بالطمأنينة فتقرب اصابعها من انفها ، وتشم الرائحة المألوفة ، كرائحة كوم السباخ ، او صفيحة القمامة ، او قطعة اللحم الميتة ، تشمها بفتحتي أنفها وتملاؤها صدرها ، فهي رائحة حياتها •

حرك حميدو رأسه ناحيتها • جذبته الرائحة المشتركة • كان من الممكن ان يتعبد ويهرب ولكنه اتجه نحوها بحكم المصير المشترك • توقف عند الجثة الميتة

فاردا قامتة الطويلة راسما ظله على الاسفلت ، طويلا
ورفيعا ومعوجا ، وبهذا الفخذ يتدلى النصل الابيض
وعليه بقع سوداء كالدم - فتح صدره وملاء بهواء الليل،
ادرک انه ولد بغير ام ، وان جده لاييه كان جنديا في
جيش محمد علي ، وانه قتل في السجن •

عرف فجأة ان السجن مصيره ، وكأنه حقيقة قديمة
يعرفها كالموت ، فلم يقاوم • ترك جسده مرتخيا في قبضة
اليده الحديدية • تدرب في سنوات الاسر ان ارتخاء الجسد
يضعف التوتر • مسام الجلد متمد وتفتح ويخرج من
عينيه واذنيه وانفه وفتحة الشرج • ويصبح كل شيء اقل
ضراوة • الضرب اقل ضراوة ، والنفخ اقل ضراوة والكي
بالنار (قبل اكتشاف الكهرباء) اقل ضراوة •

ويسقط جسده مرتخيا فوق الارض ، يتمدد بكل
قدرته على التمدد ، وتجري من تحته ذيول رفيعة من الدم،
تدخل شقوق الارض وفوق الجدران بقع سوداء كالدم ،
كل بقعة على شكل خمسة اصابع وكف • ملايين
البقع ، من كل عمر ومن كل جنس • اطفال ورجال ونساء
وعجائز بيض وسود وصفر وحمر • ولكل واحد بقعة
مميزة خاصة به •

نهض حميدو يستند على الجدار ،وطبع بصمته فوق الاسمنت كالختم (المحكوم عليهم جميعا امثال حميدو يختمون على محاضر البوليس بهذا الشكل) وتمتد الاصابع السوداء الملوثة بالدم تطبع ختمها فوق المحاضر • ملايين المحاضر بعضها فوق البعض ، متكدة كاجساد الموتى في يوم الحشر (قبل اكتشاف الاتوبيس) اجساد مرصوة في خطوط افقية مصفوفة في وضع عكسي ، الرأس بجوار المؤخرة ، والمؤخرة بجوار الرأس ، مترصة في كل شبر من الارض او السقف ، متلاصقة بغير مسافات ولا مساحات خالية تسمح بمرور الهواء او امتداد الساق او الذراع •

اغمض حميدو عينيه وفتح فمه وتأوه • تبعه الآخرون بصوت مماثل • ارتفعت ملايين الاصوات في الفضاء المظلم وصنعت صمت الليل • ضغط الصمت بكثافته وثقله على أذنيه ففتح عينيه ورأى في وجهه القدمين المشققين • عرفهما على الفور وهمس بصوت مقلد صوتها : حميدة • لكنها لم ترد ، كانت ميتة ، جسدها ممدود فوق الارض ، ووجهها ناحية السماء ، يسقط عليه ضوء القمر الابيض ، فيبدو مستديرا متورما كالمثانة المنتفخة •

فتحت فمها وتأوهت (بسبب ضغط البول) • ارتفعت

• ملايين التأوهات في الفجر وصنعت النشيج الوطني
• (كانوا يسمونه النشيد الوطني)

سمع حميدو النشيد فأدرك ان النهار طلع • جرّ
ساقيه من تحت الحزام الحديدي وسار الى دورة المياه •
المكان الوحيد من العالم حيث يشعر بالتفاؤل ، ويتبادل
من وراء الحائط بضع كلمات ، وينبعث من نصفه الاسفل
خيوط البول ، رفيعا ومقوسا كقامته ، ونفاذ الرائحة
كرائحته ، فيشعر بمرح مفاجيء ، ويرمق من حوله خيوط
الماء الصفر تلمع في الضوء كأقواس النصر فيضحك مقهقهة •
ترتفع القهقهات من دورة المياه ، قهقهات عالية ،
ملايين القهقهات ، فالاعداد تتزايد يوما بعد يوم ، وكل
الاجهزة يمكن أن تتعطل في ذلك الوقت الا الاجهزة
التناسلية والاجهزة اللاسلكية بطبيعة الحال •

ويسري الصوت كما يسري أي صوت وبالسرعة
نفسها (عن طريق أحد الاجهزة) ، ويدخل الاذنين الكبيرتين
كالحصاة المدببة ، ويرتفع الاصبع النظيف ذو الظفر
المشذب ويسلك الاذنين ، وتسقط الحصاة المدببة في
كفه السمينة المكتظة باللحم ، فيرفع عينيه فيعني الموظف
المختص ويقول : أضحكون ؟ ••

ويخفض الموظف عينيه كمادة الموظفـين في حضرة
سيده : لا يا مولاي ، يبولون فحسب •

حميدو كان لا يزال واقفا في دورة المياه ، وخيط
الماء لم ينقطع بعد ، حين رأى الموظف مقبلا يفتش ،
شعر بالخوف • والخوف كالموت كائن عضوي من لحم
ودم ، سحب الدم من رأسه وذراعيه وساقيه وأحشائه
الداخلية ، وتجمع في نقطة واحدة أسفل البطن ، انتفخت
وتمددت كالمثانة • وكان الموظف لا زال واقفا أمامه ،
فاتحا ساقيه في غطرسة ، شاخصا في عينيه بشجاعة
الموظفين في غيبة سيده ، وفمه مفتوح ، ولثته متقرحة
مصابة بالبيوريا (كلثة سيده) •

وشعر بألم حاد أسفل بطنه • وتلفت حوله • كانوا
بضيقون الخناق عليه ، والاجساد تضغط عليه من كل
جانب ، بغير مسافة أو مساحة خالية • ولم يجد مكانا
خاليا سوى الفم المفتوح المتقرح ، فصوب نحوه شريط
الماء ، وأفرغ الخوف كله من جسده •

فتح حميدو عينيه ، وأحسن من تحته البركة ، دافئة
كجسده ، نفاذة الرائحة كحياته • أدرك انه لا زال حيا ،

وتفتحت شهيته للاكل • مدّ يده في الصحن فالتفتت
ملايين الحشرات السوداء الصغيرة وهاجت من حوله في
مرح ، بعضها يطير ، وبعضها يجري ، وبعضها يزحف •
التصق بعضها بالسقف ووقف على الجدران ، ودخل
آخرون الشقوق وبقيت واحدة في كفه •

نظر بين ساقها ورأى الجرح القديم المسدود فأدرك
انها أنثى ، وانها ميتة • ضغط عليها بالكف الاخرى فماتت
مرة أخرى • طرّقت أصابعها الميتة فالتقط جهاز التسجيل
صوت الطرقة • (كان هناك جهاز للتسجيل من آخر
طراز بحجم الحصة ثبت في عضو من جسمه) • طرّقت
أصابع قدمه اليمنى بكبرياء وزهو • حركته في التاريخ لها
أهمية • والاهمية هي سبب ذلك الذعر الذي يراه في
عيون موظفي الدولة ، حين تصوّب نحوهم العدسات
المفتوحة ، فاذا بأي حركة تصدر عنهم تدخل التاريخ على
الفور ، وان كانت مجرد طرقة اصبع (بسبب تيبس
المفاصل بعد الاربعين) ، أو اصبع يرتفع ليهش ذبابة
وقفت على الانف •

هزّ أصابع قدمه بحركة مبتكرة • انه رغم كل شيء
يحب الاصالة ويكره التقليد • كم سجل التاريخ ركاما من

الحركات المقلدة غير الاصلية كحركات القروء ، ووجوه
وأصابع متشابهة مكررة كلها تقليد في تقليد • ركام مكس
بعضه فوق البعض ككوم السباخ • كل يوم ترقد البقرة ،
وفي الفجر تدخل أمه تلمّ الروث ، ثم تجمعه تحت الشمس
بعضه فوق البعض ، وحين يجف في اليوم التالي يصبح
راسخا في التاريخ •

ظهر العسل الاسود متجمدا في قاع الصحن ، واستقر
في قاع معدته كقطعة من القطران • قضم قطعة بصل
وأصلح بها طعم العلقم • أشعل قطعة تبغ وملا بالدخان
صدره وبطنه فشمع بما يشبه الشبع ، وتجشأ بصوت عال
ينمّ عن الثقة بالنفس • (الذكور فقط هم الذين كان
يحدث لهم ذلك) •

سمعت حميدة الصوت • تعرفت فيه على رائحة
التبغ • كانت تشتريه من الدكان لايها أو أخيها أو خالها
أو عمها أو أي رجل من الاسرة • وناولها البائع قطعة
حلوى ، تضعها في فمها ، وتخفيها تحت لسانها ، وحين
يطالبها بالقرش تفتح يدها فلا تجد شيئا ، وتفتح عينيها
فتجد المصباح كذوابة الضوء ، تحتضر ثم تموت بنفخة

هواء واحدة • وتسدد الظلمة الباب كالجسد الطويل
الضخم الا من ثقبين مستديرين في أعلى الرأس ينفذ منهما
ضوء أحمر بلون الشفق •

همست بصوت خائف غير مسموع : « من أنت ؟ »
رد بصوت كصوتها خائف وغير مسموع : « حميدو »
أغمضت عينيها حتى لا يتعرف عليهما ، تركت ذراعيه
الطويلتين تحوطانها ، وانفاسه الساخنة تدفئها • كان
الفصل شتاء وأذناها الصغيرتان الناعمتان كقطعتين من
الثلج •

همس في أذنيها بنفسه الساخن : من أنت ؟ تركت
أذنها تحت فمه ولم ترد • تظاهرت بالنوم وخبأت رأسها
في شعر صدره الغزير • وحينما أحست الاصابع الكبيرة
ترفع عنها الثوب كتمت أنفاسها ، ولم يعد صدرها يعلو
أو يهبط ، وأصبحت ميتة •

لكن الشمس في الصباح سقطت فوق عينيها • ورأت
الجسد الطويل الى جوارها ، طويلا ورفيعا ومعوجا •
كتفاه غير مستويتين تشبهان كتفيها ، وأصابع يديه متورمة
متفرحة من ماء الغسل كالصابع يديها ، وأظافره سوداء

كأظافرها • عرفت على الفور انه جسدها فاحتضنته بكل قوتها ، وضغطت صدرها على صدره ، فأحست المحفظة الجلدية تحت ثديها الايسر • كانت جائعة فمدت يديها وسحبت المحفظة بسرعة قبل أن يراها أحد •

اختبأت وراء جدار وفتحت المحفظة • رأت صورتها بالطرحة السوداء تشبه أمها ليلة زفافها ، ووصية بخط أيها يذكره بغسل العار ، وأربعة جنيهاً وبريزة (البريزة هي العشرة قروش في ذلك الوقت) •

أكلت بالبريزة ، واشترت بجنيهين ميني فستان (وهو الفستان الصغير الذي كان شائعاً في ذلك الوقت بين الزوجات المحصنات حتى لا يظهر من أجسادهن المحرمة الا الاذرع والاكتف والصدور والافخاذ فحسب) • واشترت بالجنيهين الباقيين حذاء له كعب عال رفيع وليس له وجه • (اختفاء وجوه الاحذية في ذلك الوقت كان هدفه الكشف عن طلاء الاصابع الاحمر بلون الدم ، أما الكعب فكان موجوداً ليخفي تشقق أقدام النساء بسبب الخدمة بالبيوت) •

وسارت حميدة في الشارع تتأرجح على الكعب

العالي ، وذراعاها عاريتان ، وفخذاها عاريتان ، وعنقها عار
حتى منتصف ثدييها • أصبحت تشبه سيدتها ، ومرت
بحذاء الشاويش (الاسم الشائع للشرطي في ذلك الوقت)
فلم يقبض عليها، وتركها تمر امامه مطرقا رأسه وخافضا
عينيه ناحية الارض (كان اسم هذه الحركة « غض البصر »
أمام المحصنات من النساء ، وقد تدرب عليها في سنوات
الدراسة) •

رفعت رأسها الى فوق ، وسارت بخطوات متأرجحة
مهتزة • اهتزت كتفها العاريتان وظهرت الكتف اليسرى
أعلى من الكتف اليمنى • والثدي الايسر أعلى من الثدي
الايمن (كان ذلك بسبب المحفظة المنتفخة المختفية تحت
الثدي الايسر) • واهتز الردفان أيضا ، واحدهما أعلى
من الآخر •

ابتعدت عن الشرطي بضع خطوات وتحسست المحفظة •
جلدها ناعم كاللعب يجري فوق أصابع اليد بعد قضمه
فطيرا بالسكر ، وتيار من الدم الساخن يسري من ثديها
الايسر الى بطنها وفخذيها وقدميها ، ثم يصعد الى رأسها
وأذنيها وأنتها ، ويهبط مرة أخرى الى قلبها ، في دورته

العادية المتكررة ، باعثا في الخلايا الساكنة حركة جديدة لها لذة •

حركت فكها العلوي فوق السفلي ومضغت اللذة •
 ذابت اللذة في اللعاب فابتلعتهما • اختلطت اللذة بالدم
 ودارت معه من الرأس الى القدمين ومن القدمين الى
 الرأس • وبدأ رأسها يدور ، فأسندت ظهرها الى عمود
 نور ، وأسدلت جفניה فوق عينيها ، فأصبح الشارع مظلماً ،
 والسماء سوداء بغير قمر • سقط الضوء المستدير الازرق
 فوق وجهها • عرفته على الفور (كان سيدها يطلي فوانيس
 عربته بظلاء أزرق حتى لا يراه أحد أثناء جولاته الليلية) •
 فتح بابه وهبط من العربة ، ثم استدار حولها وفتح لها
 الباب • انتظر حتى دخلت وجلست ، فأغلق الباب ، ثم
 استدار مرة أخرى حول العربة حتى وصل الى بابه ، ففتحه
 ثم جلس وأغلق الباب • (كان سيدها قد تدرب على هذه
 الحركة الدائرية في كلية الآداب) •

انغرز كعبها العالي الرفيع في بساط سميكة طري
 كالعجين فانخلع حذاءها • وظهر كعباها المشققان فأخفتها
 تحت الملاء الحريرية • كان جسدها قد أصبح في وضع

أفقي فوق شيء طري ، أكثر طراوة من العجين ، فارتخى
ردفاها المشدودا العضلات (بسبب طول الوقوف وراء
العمود) ، وبدأ جسدها يغوص في العجين ، القدمان ، ثم
الساقان ، ثم الفخذان ، ثم الصدر فالعنق • ولم يبق الا
الرأس بارزا فوق السطح •

بدأ الرأس يغوص بالتدرج ، الذقن ، ثم الفم ، ثم
الانف • انعدم الهواء ، فانتسعت عيناها السوداءوان وملأهما
الرعب • والرعب كائن عضوي من لحم ودم ، تجسد
أمامها على شكل مخلوق غريب مشوه • رأسه انسان
وجسده قرد • رأسه عار حليق أملس ، وصدره غابة شعر
واليتاه كرأسه عاريتان ملساوان تشف بشرتهما عن لون الدم
الاحمر كبشرة وجهه ، وشفتاه حمراوان ، منفرجتان ،
يظهر بينهما لسانه الطويل الحاد كنصل أبيض له حافة
معدنية صلبة ، وفي نهايته ثقب مظلم يكمن فيه الموت •

صرخت صرختها المكتومة غير المسموعة ، وأسدت
جفניה فوق الرعب زحف الرعب الى حلقها (خلال القناة
الدمعية التي تصل العين بالانف) وتكور كالغصه • شدت
عضلات حلقها وبصقته بكل قوتها فانبعثت من فمها وأنفها
وأذنيها خيوط رفيعة كالنافورة •

ضحك سيدها في سعادة الاطفال ، فقفز خده المستلى
 باللحم وسدّ عينيه تماما • أدركت انه سينام بعد لحظة •
 (كان السلام الملكي قد دق معلنا انتهاء الحفل الترفيهي) •
 وحينما ارتفع شخير في الفضاء فتحت الازرار الذهبية
 فوق صدره ورفعت المحفظة الجلدية الثقيلة الضاغطة على
 قلبه •

فتحت الباب بهدوء ، وسارت على مهل بخطوات
 واثقة • فتحت باب سيارتها بمفتاح فضي لامع كمفتاح
 سيدتها • انزلت العربة فوق الاسفلت الناعم كقارب رشيق
 يسبح • مرت بحذاء الشرطي الواقف على الرصيف منتصبا
 كعمود النور ، فاهتز (كأنما بمس كهربي) وارتفعت
 سبابة يده اليمنى ولا مست طرف أذنه اليسرى (حركة
 مقدسة في ذلك الوقت ترمز الى حب الوطن) •

أطلت من نافذة السيارة برأسها • سقط ضوء القمر
 على وجهها • كان الطريق خاليا الا من أعمدة النور ،
 منتصبة على جانبي الطريق في وضع رأسي ، ومن ناحية
 اليمين ترتفع الاذرع عاليا ، ومن ناحية اليسار رشق في
 كل اذن اصبعاً •

تعرفت على البقع السوداء فوق الاصبع ، فهمست بصوتها الخافت : حميدو ! لم يسمع حميدو شيئاً ، وظل واقفاً منتصباً ، رأسه مرفوع نحو السماء ، واصبغه الاسود في أذنه (جميع المسافرين الى الخارج كانوا يرون في مدخل كل بلد هذا النصب التذكاري للجندي المجهول) •

مدت يدها وأمسكت يده • أصابعه كأصابعها والخطوط فوق كفه تشبه خطوطها • أشفت عليه بحكم المصير المشترك ، وحاولت أن تثني ذراعاه المرفوعة في اعياء • لكن الذراع الحجرية أثبت الاثناء وظلت مرفوعة في الهواء • رفعت عينها الى فوق ورأت العينين الواسعتين السوداوين تلمعان بدمعة حقيقية كدمعة الاطفال • سقطت الدمعة على خدها ساخنة ، وزحفت من زاوية فمها مرة كالعلقم تحت لسانها ، فابتلعتها • سقطت واحدة أخرى ساخنة على خدها ، وزحفت الى زاوية أنفها مرة كالعلقم فابتلعتها • وبدأ الحزن يغزو جسدها من جميع المسام والفتحات ، يدخل أنفها وفمها وأذنيها كمسحوق ناعم ، مدبب الذرات ، كقطع الزجاج المبشور ، تمزق الاغشية الرقيقة التي تخلف الانف والفم والشعب الهوائية ، فتسعل بشدة ، وينزّ من صدرها سائل أبيض يجري في قناة

طويلة ضيقة تصل القلب بالحلق بالانف بالاذنين بالعينين ،
 فاذا بها تمخط لعابا من عينيها ، وتبصق دموعا من أنفها
 وفمها وأذنيها ، وكلها بيضاء تتخللها شعيرات من دم *

رفعت وجهها الى ضوء القمر • أصبح يياضه شديدا
 خاليا من شعيرات الدم ، وملامحه غريبة تشد البصر
 لتناقضها الشديد • فالذقن صغيرة مستديرة وناعمة كذقن
 طفل ، والجبهة بارزة خشنة مجعدة كجباه العجائز •
 الشفتان عذراوان منفرجتان عن حرمان لا يرتوي كسفاه
 الزوجات العفيفات ، والخدان بارزان في شراة حادة
 لا تشبع كخدود الأزواج المحترمين ، والانف مستقيم عال
 في كبرياء ، سفية كسفاهة المجرمين والخارجين على
 القانون ، والاذنان صغيرتان مستكيتان بغير حركة كأذان
 موظفي الحكومة ، والعينان سوداوان واسعتان ، فيهما
 نظرة بدائية وقحة مرفوعة الى أعلى وثابتة ، لا تغض البصر
 كعيون النساء المحتشمات المطرقات الى الارض حياء من
 أفكارهن الوقحة •

ملامح غريبة شديدة التناقض ، والتناقض لشدة
 الغربة كان منسجما مع الملامح على نحو متسق مألوف ،

يبلغ من شدة انسجامه واتساقه درجة من الجاذبية غير
المألوفة ، تشد اليها البصر شدا ، كأنما ليس لها وجه واحد
وانما وجهان أو ثلاثة أو أربعة ، أو ان وجهها ليس وجهها
وانما شيء آخر .

شيء آخر مثير للحيرة والارتباك ، والقلق بل
والغضب . فالإنسان يغضب بطبيعة الحال حين ينظر في
وجه انسان آخر فلا يرى نفسه وانما عورته ، ويشتد
غضبه بطبيعة الحال أيضا اذا كانت عورته غير مألوفة في
شكلها أو غير طبيعية ، والطبيعي أن يكون للعورة شكل
مخجل مخل بالشرف ، وأن يكون لها رائحة نجاسة
(كرائحة العرق أو البول أو غيرها من افرازات الجسد
السامة) ، ولكن أن تكون الرائحة طيبة معطرة فهذا هو
الغريب ، لأن الجسد في تلك الحالة يحتفظ في جوفه
بالعرق والسموم ، فيصبح الجوف عفنا تفوح منه رائحة
النجاسة ، أما الوجه فيظل نظيفا أبيض تكسوه ملامح
النبيل وعراقة الاصل (وغيرهما من السمات الرفيعة التي
تظهر بوضوح على وجوه النبلاء أمثال سيدها) .

وتحرك وجه سيدها نحوها وهي واقفة في ضوء

القمر • ظلت عيناها في عينيه سوداوين واسعتين مفتوحتين
لا تغضان البصر • أراد أن يبصق في وجهها من شدة
الغضب • لكنه كان قد تعود أن يكظم الغضب ، فأصبح
الغضب لا يحرك في وجهه الا عضلة صغيرة عند زاوية
أنفه ، تتقلص فجأة ، وتشد شفثيه في انفراجة ، تبدو
للعين المجردة كالإبتسامة •

لم يكن لديها موعد آخر فصعدت الى السيارة ،
مرّت السيارة من أمام بيته الرئيسي في الزمالك • رأت
سيدتها تطل من النافذة العالية المزركشة • كان رأسها
بحجم الدبوس (بسبب الارتفاع الشاهق) ، لكنه رأسها
فأخفى وجهه بيده اليمنى وداس على البنزين بقدمه اليسرى
فانطلقت السيارة ولم يره أحد • سار على مهل في شارع
النيل واجتاز الكوبري ، فأصبح على مشارف حي بولاق ،
حيث بيته الفرعي (كان لكل زوج محترم في ذلك الوقت
بيت فرعي الى جانب البيت الرئيسي ، ويزيد عدد بيوته
الفرعية كلما زادت درجته) •

وتجرد من ملابسه بسرعة (كعادة المشغولين بأمور
هامة) ، ثم رفع قدمه ووضعها على طرف السرير ، وبقيت

انقدم الثانية فوق الارض (كان قد تدرب على الوقوف على ساق واحدة في سنوات الخدمة العامة) • تصادف في هذه اللحظة أن حركت رأسها ناحيته فلم تجد آلة القتل وانما الجرح القديم المسدود • كان يمكن أن تتسع عينها السوداء في دهشة • لكن شيئا لم يكن يدهشها، فحركت رأسها ناحية الحائط بغير اكتراث • رأت فوق الحائط سيدتها بملابسها العسكرية داخل اطار مذهب ، وعيناها شاخصتان فوق الكتلة العارية ، تتابعان حركتها بنظرة الحكام الوقورة المتجهمه ، وتلتقطان الصور من جميع الزوايا (ملحوظة : حفظت هذه الصور في أرشيف المخابرات المركزية) •

وأصبح وجهها معروفا ، حين تطلّ من نافذة العربة تلتوي ناحيتها الاعناق حانية الرؤوس بطبيعة الحال • وأصبح وجهها فوق الجدران ، في ناصية كل شارع ، حيث كانت تقف تنتظر ، وأحيانا حين يطول بها الانتظار ترفع رأسها الى فوق ، وترى صورتها معلقة ، شفتاها منفرجتان في ابتسامة عريضة ، ومن بينهما (عند ركن الفم) ، خيط طويل أبيض من اللعاب الدافئ يجري صاعدا الى زاوية الالف ثم يدخل في الركن بين الالف والعين •

وتمسح البلولة من فوق وجهها بكفها ، ثم تمسح
كفها في الجدار ، وترسم على الجدار الكف وخمسة
أصابع آدمية ، تهبّ عليها نسمة الليل ، وتطلع عليها
الشمس فتجف وتصبح بقعا سوداء بلون الدم القديم •

سقطت أشعة الشمس فوق عيني حميدو وهو نائم في
وضع رأسي بجوار الجدار • فتح عينيه ورأى الكف
والأصابع السوداء الممدودة • أصابعها كأصابعه والخطوط
فوق كفها تشبه خطوطه • انفرجت شفتاه هاتفا : حميدة !
وشدّ آلة القتل بحذاء فخذه ، لكن رأى المفتاح الفضي
اللامع يتدلى من بين أصابعها ، فأدرك انها سيدته ، وأخفى
الآلة في جيبه في لمح البصر ، وتركها تتدلى مرتخية وراء
فخذه ، ووقف في مكانه منتصبا ، عضلات ظهره مشدودة ،
وذراعه اليمنى مرفوعة ، وجفناه مرتخيان متدليان فوق
عينيه كالحجاب •

حين ابتعد صوت العربة رفع جفنيه ، ورأى مؤخرة
العربة المدببة تشقّ الظلمة ، ثم ابتلمتها الظلمة • ترك
عضلات ظهره ترتخي ، وذراعه تهبط ، وشعر براحة ،
فملا صدره بهواء الليل ، وحاول أن يتذكر وجهه وهو

طفل ، وشكل ملامحه حين كان يتنسم أو يضعك ، فلم يتذكر شيئا • لم تكن هناك طفولة ولا ابتسامة ولا ضحكة •

سمع وقع قدميه الثقيلتين فوق الارض : يمين • شمال • يمين • شمال • لب • دب • لب • دب • الضربات البطيئة المنتظمة ، تتخللها مسافات من الصمت الاسود بلون الموت • سعل وبصق على الارض البصاق المدمم • سقطت الخيزرانة الرفيعة على ظهره ولسعته ، فأدرك انه عار وانه لم يمت بعد • فقد تفاؤله وبصق مرة أخرى • سمع الصوت الأمر المألوف فشدّ الآلة من الجراب الاسود • نظر بعين واحدة في الثقب ، وحدد النقطة في منتصف المسافة بين العينين • صاح الصوت الخشن : اضرب • ضرب •

سقط الجسد الطويل المعوج ، وفي منتصف جبهته البارز ثقب يجري منه خيط طويل من الدم ، يخترق العينين والخددين والانف والشففتين ويدور حول الذقن الصغيرة المستديرة كذقن الطفل •

لم يكن طفلا واحدا • وانما آلاف الاطفال أو ملايين ، أجسادهم سقطت فوق الاسفلت وفوق وجه كل منهم خيط طويل من الدم يجري من العينين الى الانف

والفهم وبالعكس • والشمس سقطت فوق الاسفلت ،
والسماء أصبحت زرقاء صافية وظهر فيها بوضوح الآلهة
المكدسون الجالسون صفوفًا ، ساقًا فوق ساق ، يدخلون
الزرجيلة •

مدّ حميدو ساقه فارتطمت بساق أخرى • مدّ ذراعه
فارتطمت بذراع أخرى • أصبح غارقًا في بحر من الاجسام
الميتة • بدأ يسبح بذراعيه وساقيه في الخضمّ الكبير •
توقف لحظة ليلتقط نفسه ، وتلفت حوله ليعرف أين هو
أو من الذي أتى به الى هنا • لم يتذكر شيئًا سوى انه
كان طفلاً ، وان قبضة يد قوية اندفعت في ظهره ، وقذفت
به في البحر • رأى اليد مرسومة فوق الجدار • الكف
الكبيرة ككف أبيه ، والاصابع متورمة مشققة كأصابع
أمه • انفرجت شفتاه وهتف : أمي ! نظرت اليه أمه بعينيها
السوداوين ، والطرحة السوداء على رأسها وعنقها
وكتفيها وبطنها •

كانت واقفة بقامتها الطويلة لا تتحرك وصدرها
العالي ثابت بحذاء رأسه • وضع رأسه على صدرها ، ودفن
أنفه بين ثدييها • أبعدته أمه بيدها القوية ، فرفع رأسه

اليها ، ورأى عيني أبيه الواسعتين تلمع فوق بياضهما
الكبير الشعيرات الحمراء كالشعابين الرفيعة ، وسمع صوته
الغليظ : العار لا يغسله الا الدم .

اقترب من أبيه ، وعيناه ثابتتان في عينيه لا ترمشان .
ارتجفت الشعيرات الحمراء فوق البياض الكبير (الانسان
يفزع اذا ما رأى عينا مفتوحة تنظر اليه دون أن ترمش .
معنى ذلك انها تفحصه جيدا لتراه على حقيقته) .

تراجع أبوه خطوة الى الوراء فسقط ضوء المصباح
على وجهه . رفع كفه الكبيرة وأخفى وجهه ، لكن الضوء
كان يكشف جسده الطويل الضخم وهو واقف يسد
الباب . نفخ دَوَابَّة الضوء فانطفات ، وأصبحت الظلمة
شديدة ، الارض كالجدار كالسقف . فتعثرت قدمه الكبيرة
الحافية في العتبة المرتفعة بعض الشيء . لكنه استعاد
توازنه ، ووثب كالفهد على أطراف أصابعه المطاطية ، ثم
سار على مهل وحذر متخطيا شيئا يشبه البلغة (الحذاء
بلغة أهل الريف) .

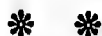
صرخ حميدو بصوت الاطفال ، لكن جسده لم يكن
جسد طفل . وامتدت يده في جيبه الطويل كالجراب ،

وشدّ الآلة المعدنية الصلبة • حدد النقطة في منتصف المسافة بين الدائرتين البيضاوين تلمس فوقهما الخيوط الحمراء • كنم نفسه وأغمض عينيه وضغط على الزناد •

فتح عينيه ورأى الجسد الطويل المعوج ممددا تحت الشمس • عيناه الواسعتان مرفوعتان الى أعلى وذراعه اليمنى متدلية الى جواره تقبض على شيء • فتح حميدو أصابعه ، فسقط القرش في كفه • أغلق عليه يده ، وذهب الى الدكان ليشتري تبغا • اشترى قطعة من الحلوى ووضعها في فمه • استدار ليعود ، لكن البائع طالبه بالقرش • فتح يده المغلقة فلم يجد شيئا • أمسك البائع العصا وجرى خلفه •

كان جسده خفيفا صغيرا يطير في الهواء كأجساد العصافير ، وكان من الممكن أن يسبق البائع (لو كان عصفورا) ، لكنه أحس فجأة (وكما يحدث في الاحلام) ان جسده أصبح ثقila كأنه تحجر على شكل تمثال ، تسمرت قدماه في الارض ، وثبتت ذراعه بالحديد والاسمنت ، والفخذان أصبحتا من الرخام ، وكل فخذ شدّ الى ناحية ، ودقّ في كل قدم مسمار كالمصلوب ، وارتفعت

العصا الرفيعة من الخيران في الجو ، طويـلة ورفيعة
ومعوجة كالقوس ، ثم هوت على شيء طري ساخن
كاللحم الحي •



حين فتح حميدو عينيه، كان ضوء النهار يملأ الغرفة.
وأيقن ان ما رآه لم يكن الا حلما ، فقفز من فوق الحصيرة
وجرى الى الشارع • كان أصدقاؤه من أطفال الجيران
يلعبون كعادتهم في الحارة الممتدة أمام البيوت الطينية ،
يسك كل منهم يد الآخر ويصنعون دائرة تلف وتدور ،
وصوت غنائهم الحاد الرفيع يدور مع حركة أجسادهم في
أغنية واحدة ، لها مقطع واحد ، يتكرر في دورة متصلة
لا تنقطع :

حميدة ولدت ولد

سمته عبد الصمد

سأبته على الانايا

خطفت راسه الحدايا

حدايا حدايا بوز القرد

ولانهم يدورون ويغنون بغير انقطاع ، فلا يمكن
للاذن أن تعرف بداية الاغنية من نهايتها ، ولا يمكن للعين

أن تعرف بداية حركتهم من نهايتها ، لانهم أطفال ، ولأن
الاطفال حين يلعبون يسكون بأيديهم بعضهم البعض على
شكل دائرة مغلقة •



ولكن لا بد لي أن أنهي القصة ، فكل شيء له نهاية ،
لكن نقطة النهاية في هذه القصة لا أستطيع تحديدها •
فالنهاية لا تنتهي بنقطة محددة ، لأن النهاية في حقيقة
الامر غير موجودة ، أو ان النهاية والبداية يتصلان في
خط واحد دائري من الصعب تحديد أوله من آخره •

ومن هنا الصعوبة في انهاء شيء ، وبالاخص اذا
كان قصة حقيقية ، أي قصة صادقة كل الصدق ، دقيقة
غاية الدقة • والدقة تقتضي من الكاتب أو الكاتبة أن يراعى
كل حرف ، وألا يهمل أي نقطة • ان نقطة واحدة قد تقلب
كيان معنى من المعاني ، وبالذات في اللغة العربية • الذكر
قد يصبح أنثى بسبب نقطة أو شرطة ، والبعل يصبح بغلا ،
والوعد وغدا وهكذا •

ومن هنا أهمية النقطة الدقيقة المحددة • أي النقطة
الهندسية • وبمعنى آخر ، لا بد من دقة علمية في العمل
الفني الجيد • لكن العلم يفسد الفن ، وهذا الافساد هو

بالضبط ما أردته في هذه القصة لتصبح جيدة ، أو لتصبح حقيقية وصداقة صدق الحياة الحية . لأن الحياة قد تكون ميتة في بعض الاحيان ، كالانسان الذي يمشي على الارض دون أن يعرق ، أو دون أن يبول ، أو دون أن ينبعث من جسده شيء فاسد . لا يمكن للانسان الحي أن يجس فساد في داخله ، والامات ، وأصبح وجهه أبيض ناصع البياض ، وجوفه عفنا عفونة الموت .

خيل اليّ (والخيال في تلك اللحظة كان حقيقة) ، ان طفلا من الاطفال المنشدين المتماسكين بالايدي على شكل دائرة تدور ، خرج فجأة من الدائرة . رأيت جسمه الصغير ينفصل عن الخط الدائري المنتظم في دورانه كنقطة لامعة محددة . كنجم فقد توازنه الابدي فاتفصل عن الكون الالانهائي ، واندفع بحركة عشوائية سريعة متوهجا بشعلة كالشهب قبل أن يخرق .

وباستطلاع غريزي تابعت عينيّ حركته . وحين توقف كان قد أصبح بالقرب مني . ورأيت وجهه . لم يكن طفلا ذكرا . كان أنثى . لم أعرف عن يقين انها أنثى ، فوجوه الاطفال كوجوه العجائز ليس لها جنس .

• الوجه (للغرابة الشديدة) لم يكن غريبا عليّ .
• كان مألوفاً بدرجة أثارت دهشتي الى حد عدم التصديق .
فليس من المعقول أن يخرج الانسان من بيته في الصباح
ذاهباً الى عمله ، فاذا به يصطدم بشخص آخر ، ما أن
يرفع وجهه اليه حتى يرى وجهه هو وليس أي وجه آخر .

أعترف ان جسدي ارتج . • نوع من الذعر شديد ،
يشلّ قدرة الانسان على التفكير . ومع ذلك فكرت : لماذا
يذعر الانسان حينما يرى وجهه وجهاً لوجه ؟ ربما هي
الغرابة الشديدة ، أو ربما هي الالفة الشديدة . حينئذ
يختلط على الانسان كل شيء ، وتصبح الاشياء المتناقضة
متشابهة الى حد التماثل ، فالأسود يصبح أبيض ، والابيض
أسود . ومعنى ذلك أن يواجه الانسان بعينه المفتوحتين
حقيقة انه أعمى .

— تمت —

مؤلفات د. نوال السعداوي

امراتان في امرأة
موت الرجل الوحيد على الأرض
امرأة عند نقطة الصفر
الأغنية الدائرية
موت معالي الوزير سابقاً
الخيطة وعين الحياة
الغائب
كانت هي الأضعف
مذكرات طيبة
تعلمت الحب
حنان قليل

 دار الآداب

ملف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣

ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت